كائنٌ

يمرحُ في العدم

فيصل الحبيني

كائنٌ

يمرحُ في العدم

كائنٌ
يمرحُ في العدم

فيصل الحبيني

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

2014

الفهرس

الفصل الأول: **وجود** **9**

الفصل الثاني: **غبار** **31**

الفصل الثالث: **ملل** **51**

الفصل الرابع: **عدم** **73**

إلى ...

ج

وجـود

بأيّ حسٍّ عميق، خلق الله الوجود

»كائن يخبئ القيامة«

السّلام عليكَ أيّها العالم.

اعذرني، فقد جئتُ متأخرًا إلى احتفالك الكبير. إنه القرن الواحد والعشرون. لقد تأخرتُ تاريخًا بأكمله، وفاتني ما فاتني من الوساخة والبهاء. لقد سبقني حشدٌ من القتلة والقديسين والمهرجين، ولكني وصلتُ أخيرًا، مدفوعًا بتيارات الزمن، من وادي العدم. هذا إذًا المكان الذي نزح الجميع إليه. هذا ما يُسمى بالعالم. آه، أي خيبةٍ في هذا!

جِئتكَ عربيًا مذعورًا، في ظلمات الألفية الثالثة. أقطن أرضًا تشبهني، قاحلة، يُثقلها الزّيت الأسود في باطنها. أرضًا متطرفة، لا يشبعها سوى الصيف والشتاء، ولا تستلذُّ بأنصافِ الفصول. وعندما طالبنا بحقّنا من الرّبيع، وولدناه أخيرًا من رحم الخيبة، جاء ربيعنا ليقطف أعمارنا، ويرمي الزهور على رمس قبورنا.

جِئتُ بيدين، لتُربِّت الواحدة على كتف الأخرى. أُذنين على الرأس، وألف أُذنٍ في داخله. قلبٍ كقبضة يد، يحمل الكون في باطنه. لم أزلف إلى الوجود إلا على قرع البكاء، وضجيج الصراخ. أيّ خيرٍ في حياةٍ تبدأ بمشهدِ أمٍّ تتعذّب؟ لقد كانت ولادتي، أول خطواتي نحو الموت. أيها العالم لقد دخلتك فردًا، فكيف صرتُ الآن حشدًا؟

يا أيّها الأنبياء، يا رجال السّماء، لم توقفتم عن المجيء؟ أتُرانا الآن أفضلُ حالًا؟ العالم في حاجةٍ لكم، أكثر من أي زمانٍ مضى. أتكونون قد ضجرتم من التمسّك بالأمل؟ فالمكان، على كل حال، قديم، ولا رجاء منه. أم أنكم ما تزالون بيننا، وما زلنا نضطهدكم، نحن قَتلة الأنبياء، كما اعتدنا؟

كم قَتلنا، وكم قُتلنا بإسم رسالتكم. أتُذيقوننا الماء، ثم تتركوننا عطشى في قلب البحر؟ أكانت مهمتكم إنقاذنا من الهلاك، أم إنقاذ الرب من النسيان؟ لقد ولّت السكينة عند الهبوط، ومات الأمل مع هابيل.

أردتَ أن تحفظَ الأرض من الفيضان يا نوح، ولكنك حملتَ في مركبك بذرة الطوفان؛ لقد حملت معك الإنسان. لقد صُفعنا أيّها المسيح، فمدّدنا خدّنا الآخر كما علّمتنا، مؤمنين بالتسامح طامعين بالسلام. أيّها المسيح، ما زلنا نتلقى الصّفعات!

أيتها البشرية، بِودّي؛ أنا القادمُ الجديد، أن أحاوركم جميعًا. أن أصافح كل واحدٍ منكم، وأُقدّم نفسي إليه: ’’ أنا نزيلٌ جديد، لا أدري ما الذّي أتىٰ بي إلىٰ هنا، لكن المكان سيّئ، والغربة لا تطاق. لنكّن أصدقاء.‘‘ غير أن الوقت لا يُسعف للحديث. فالنهار ضيّق، وعملنا طويل. إذ ما إن يجيء المرء إلىٰ العالمِ، حتىٰ يبدأ في التفتيش عن غايته. والعمر كله، لسوء حظّنا، لا يكفي لأي وصول.

بِودّي أن أخاطبَ كل شجرةٍ، كل حجرٍ، كل وحشٍ بريّ، فجميعهم شاركوا في صُنع هذه الكارثة الهزلية، المسماة بالتاريخ. وجئتُ أنا اليوم لأستلم عار الدّور، وأَمضي بالمواكب قُدماً؛ إلىٰ هاوية آخر الزمان.

يا الله؛ يا أكثر من أُحبُّ، ويا أكثر من أفتقدُ. يا حبيبَ القديسين. يا إله المجرمين. يا صديق الأطفال. يا أمل العجائز. كم حرمونا من الحياة، بإسمك يا واهب الحياة. قد أكون متّسخًا ببقع العالمِ، ملوثًا بالخطيئة، وأكثر دناءة من أن أُحدّثك، لكني أُحِبك. سأصّلي لك من أعماقي، وإن جوعتني وأتعبتني وأحرقتني وأضنيتني. من قاع هذه المزبلة التي أقطنها، سأمجدك، وسأفنىٰ بالتسبيح لك. سأكره كل من ينكرك، وإن كرهت أنت ذلك. فأنت الله، ولا يسعني أنا سوىٰ فعل ذلك.

أعيشُ، بلا جدوىٰ. أضيء الشعلة، والريح أقوىٰ. أُغني للغد، والغد لا يأتي. أجرجرُ طوعاً في طريق العيشِ. غدوتُ جثةً، فحرامٌ أن تركل الجثث أيها العالم.

جئتُ، ولم أشاهد فيك أفظع من مشهدِ إنسانٍ يذبحُ إنساناً. إنك عالم السفلة، وعرين القتلة. عالم قابيل وإخوة يوسف. وفي أزمنةٍ كهذه، بات من المخجل أن يتحدّث المرء عن السعادة. فمن غير الأخلاقي أبدًا، أن تُعبر عن فرحك في وسط هذا المأتم. غير أن الشاق فعلًا، يتمثّل في من يهُذي عن جمال الحياة طوال الوقت، دون توقف، مستغرقًا في الغَرفِ من قدور الإنكار: مساءُ التفاؤل يا سيّدي التافه، مغمّسة بالأمل الأبله.

تأملتُ النّاس، وأدركتُ أن البؤس قد اتسع لنا جميعًا. لقد جاءت صَرَخاتنا، احتجاجًا علىٰ القدر، صفعةً له، رفسةً علىٰ وجهه، رجاءً مقهقرًا. إلهي، ألا تهتزُ لصَرَخاتنا السماوات؟ ألا تخجل الجنّات من نعيمها، بوجود كل هذا الشقاء علىٰ الأرض؟ ألا يغارُ الجحيم، بوجود عذابٍ أعظم منه؟

حتىٰ الهزيمة، صارت حُلمًا. صِرنا نصّلي كي ينتهي هذا الصّراع، ولو بالخيبة. فقد تعبنا، ولا نطمح إلا لأن نستريح. ولكن لم يعد للحلم أي قيمة. لقد صار أمرًا مبتذلًا. ولا يبدو الإنسان في طبيعته، إلا كائنًا توّاقًا. لا يعرف ما يريد. يتخبط طويلًا

كالمسعورِ في دهاليز الأرض، تهربُ منه السعادة مُرتعبة، وتختبئ منه الحقيقة مرتجفة، حتىٰ يسقط أخيرًا، عندما ينهكه التعب، علىٰ أقرب حجرٍ في الطريق.

ولكن لأننا لا نملك إلا أن نحلم، لإغاظتك أيها العالِم، فسنحلم. حتىٰ لو كان الحلمُ دورانًا أبديًا، سندور إذًا وندور، حتىٰ تجيء لحظة التجلّي، وسنحلم. لن نصمت أيها العالِم. لن نجعل من هذه الأرض، قاعة انتظار هائلة لسيادة الموت، الذي تأخر عن عمله طويلًا. لن ننتظر. ولن تُسكرنا بحديث مملكة السماء، التي لا يذهب إليها إلا الموتىٰ، بل سنقيم مملكة الأرض، التي لن يدخلها إلا الأحياء.

لن نُهزم. لقد طرحتنا علىٰ جباهنا، فتعلمنا الصّلاة. نحرت حناجرنا بسكينك، فسننا بها أقلامنا للكتابة. لقد وجدنا في العدم فسحةً أكبر، فهيّا الآن بك إلىٰ العدم.

سنُنزل السعادة المصلوبة من علىٰ الوهم. سنحرّر الحقيقة، التي ذرفنا من أجلها الدّم والعرق والدّمع، من سجون الطغاة. سَنتعبُ كثيرًا، لا شكّ في هذا، لكنّنا سنتقدّم ولو خطوة إلىٰ الأمام، وما أبعد هذا الأمام! وإن كان مصيرنا الموت.

فيا أهلًا وسهلًا بك يا سيادة الموت. وحدهم الأشرار، يحقّ لهم الخوف منك. أما الأبطال، فلا يهابونك. والأخيارُ يطلبونك. لأن في زمن الفجيعة هذا، صار السؤال

الحقيقي، الذي علينا أن نسأله حقًا، ليس ما إذا كانت هناك حياة بعد الموت، بل هل يوجد، حياة فعلًا، قبل الموت؟

يا أيّها السابقون، أهذا هو العالم الذي قاتلتم لأجله! أين أنتم اليوم منه؟ بل أين نحن اليوم منه؟ إخوتي، سدىً لنْ ترحل صَرَخاتكم. ولن تَضيع دِماؤُكم المسكوبة عن دربها إلى الجدوى. لن نخرج من هذه الحفلة، التي أُقصِينا إليها بلا دعوة. لن ننْسحب. بل سنهدم سقف العالم على من فيه. نحن الواقفين، الذين لا نملك مقاعد، سنقلب الطاولات على جلاسها. سنكسرُ الكؤوس، لنخفف من عطشنا. سنبصق على المائدة، التي لا يُدعَى إليها الجميع.

آه يبدو أن الحفلة، قد انقضت منذ زمنٍ طويل. وانقلب الأمر إلى مجزرةٍ مهولة، ستعقبها عما قريب مرحلة الجنازة، عهد العويل والندم. غير أن الزوّار سيحسبون أن الاحتفال ما زال، وأبدًا سيسمرون ويرقصون، في قلب المأتم.

هذا الوجود جدار، شروخه نحن. سنتمدد ونحفر عميقًا، ليسقط من حولنا الحصار. آهِ كم ستكون حربنا مضحكة، لو لم تكن مؤلمة للغاية! لكننا رغم ذلك، سنخوضها، مُسلّحين بالزهور والقصائد والحق، مردّدين في قلب أغنياتنا، كلمات الرب.

الّذين جاؤوا للحياة لتوهم، من مكر القدر عليهم، أنه لم يهبهم عقلًا كاملًا، بل عقل طفل، حتىٰ لا يدركوا فداحة ما حدث لهم. ورغم ذلك تراهم يبكون، ولكنهم لا يعقلون. ثمة شيءٌ يخيفهم، بحُكم الفطرة، ولا يدرون ما هو علىٰ وجه التّحديد. وبالتالي لسذاجتهم، يقترفون العيش، والتشبّثَ بالأشياء، فيصعب عليهم فيما بعد أن يغادروا بإرادتهم، متىٰ ما تبين لهم حجم المأساة الحقيقية التي نزلت بهم، المسمّاة الحياة.

لي أربعة إخوة، حملت بهم أمي من بعدي. ماتوا جميعهم، قبل أن يولدوا. خرجوا من بطن أمي جثثًا سعيدة. لقد تعالوا علىٰ هبةِ الحياة، ورفضوها. أعطوا ظهرهم للوجود، وذهبوا لمكانٍ آخر. لقد جاؤوا لحظة، ليضحكوا في وجه العالم، ويرحلوا. لا ليبكوا، ويبقوا، كما فعلت أنا.

كانوا أكثر حكمة مني. استنكروا الصحو، ورجعوا لوادي العدم. لم يتشردوا هنا، وظلوا في الوطن. كانت رؤيتهم ثاقبة. فطنوا بأن الغبار كثيرٌ هنا، واستشعروا كثافة الرطوبة الخانقة، والحرارة التي لا تطاق. أقرفهم المنظر، فانصرفوا محبطين، من حيث أتوا.

وماذا فعلت أنا في تلك الأثناء؟ تعلمت المشي والكلام والحياة. أشحذ المضي بالأحلام. أتعلّم العيش، ولا أعيش. أؤمن بالهواء، وأتنفس الغبار. أسافر أبدًا، بلا وصول. وكلما زارتني الدّهشة، تربص بي الملل. وكلما أتى الربيع ليزهرني، انقضّ الخريف ليدفنني. وهنتُ كثيرًا، ولا مقعد هناك، ولا شجر لأتكئ عليه. ملل وفتور، هذه هي الحياة.

ما إن تتعلم المشي، حتى تتعب، وتقرر الجلوس. ما إن تتقن الكلام، حتى تتلعّثم، فتلزم الصمت. وما إن تدرك الحياة، حتى تكتشف فداحتها، وتتمنى الموت. ليس العيش بأكمله، إلا مضيعةً للوقت، على هامش الأبدية، متجرًا صغيرًا على رصيف الكون، نقضي به بعض الوقت، لنعود للسير نحو السرمدي. فالموت إذًا، هو متابعة المضي. وعلى هذا، حتى متى سنتأخّر؟ حتى متى؛ سنقف نتفرّج على هذا المهرج العجوز، الذي يدعونه بالعالم، ونؤجل رحيلنا إلى مكانٍ لا غبار فيه، ولا ملل؟

إن الحياة بذاتها، خاوية. ولملء فراغها، دائمًا ما يخلق المرء لنفسهِ أهوالًا مريعة في مخيلته، ليجعلها ذات قيمة. إن الحياة معطف، خيالنا خيوطه.

ونستمر في التغاضي، ومتابعة السير. نفشل في ذلك، ثم نموت وحيدين. هذه هي كل القضية، التي نُسميها حياتنا.

أنا مريضٌ بالوجود. آنست سقمي هذا، في اللحظة التي أدركتُ فيها بأني موجودٌ فعلًا. كان الأمرُ مريعًا؛ أن تُعاين العالِم من حولك، وتسأل نفسك: ما الذي يحدُث هنا؟ ما كل هذه الفوضى؟

ما انتابني ساعتها ليس كآبة، أو صدمة. بل لحظة وعي فائقة، إدراكًا تامًا لوجودِ المرء البائس. عندما يفّطنُ بأن الوجود بِحدّ ذاته، جرحٌ مُستعصٍ. وبأن هذا العالِم، ليس مكانًا آمنًا. وأجدني الآن تائهًا، أتوق لذاك الوطن الذي جئت منه. ولكنّ المكان قصيّ، والطريق عُضال.

في الحقيقة، يصعب عليّ فهم الفلاسفة، واستعسارهم المبذول لإثبات وجودنا. ما الجدوى من تأكيد هذا المرض، في حين أننا نشعر بوجعه يفتِك بنا على الدوام، بلا هوادة؟

إن ممارسة الوجود، وأنا جالس، لأصعب من ممارسة رياضة القفز على الحواجز. إنني أقفزُ كل يوم، كل ساعة، كل لحظة. ولا أرضَ ثابتة هناك، لأقف عليها. أنا لا أتنفس، بل ألهث من التعب. أنا لا أصحو، إلا لأن النوم قد ملني.

تتملكني في الأعماق شهوةُ الانسلاخ من كوني شيئًا. أريد أن أنسى رعب كوني إنسانًا، يُبجِّل المعنى والهدف والسعادة. يَقتضي عليّ أن أتملّص من كل هذه الأشياء، التي تدعى أشياء. أبحثُ عن منفذ. ألتفت. أتأمل العالم من حولي. أمعِن النظر، وأبصِر من حولي فضاءً جاثمًا، شاحبًا.. ولا مخرج هناك.

تكمنُ المعضلة في أنني لا أستطيع أن أُقدم على الانتحار. فقد اقترفتُ العيش، ووقعت في مأزق التشبُّث بالأشياء. لقد فات الأوان على الرّحيل. ولم أعد ساذجًا بما يكفي لأن أحلم، أحب، أو أطمح مرة أخرى. فقد كان لي عار المحاولة مسبقًا، وانتهى الأمر.

لقد وقعت في الفخ: غير قادر على الحياة، ولا أجرؤ على الموت. ما الذي يحركني إذًا؟ ما الذي يدفعني كل يوم لأن أقترف الاستيقاظ، وأمارس الصحو؟ لقد

تمعنت في هذه الحقيقة المفزعة، ووجدت أني قد لمست غشاءً شفافًا، يفصلني عن حقيقة الأمر.

يبدو أنني أمسيتُ كالجندي في الحرب، الذي أرداه التّعب، بعدما استمر في القتال فترةً من الزمن. ومع الوقت، صار لا يؤدي إلا واجبه فقط، دون ملاحظة أنه، في الحقيقة، يمارس الشيء الذي يعييه. فيستمر في ذلك، إذ قد تكونت هذه العادة لديه، حتى صارت أقوى منه. وبالتالي، لا تراه يذعن لإعلان وقف الحرب، بل يتابع القتل، لأنه قد نسي فعلًا، طوال هذه المدة من الإنصات للأوامر، أن راحته تتطلب منه التوقّف فحسب.

ويرجع السبب لأمرٍ آخر، وهو اهتمامي المُلفت لنفسي. فلو كنتُ إنسانًا فاضلًا، لكنتُ أكثر عرضة للانتحار. إن تقلّباتي تثيرني، إن أصدقت القول. إن ما أجده في مجوني وتهّوري لشيء يثير فضولي بنفسي. فأن أكون قديسًا، هذا أمرٌ كفيلٌ بأن يجعلني أملّ ذاتي. وأنا شخصيًا، أتخلّص لا إراديًا من كل ما يدفعني إلى الملل، حتى لو كانت نفسي. إنني في حاجةٍ للذنب، للتحسّر، للندم، لطلب المغفرة. إنني في حاجةٍ دائمة، لأهزّ ركود أعماقي بعاصفة مدوية. بذنبٍ فظيع. بخجلٍ عميق. بعاطفة تقبض على الحياة وتعصرها.

هذا ما يجعلني قادرا على الاستمرار.

وبرغم هذا كله، تراهم يتّهمونك بالحياة، ويتمنّنون عليك بها، وكأنها كانت رغبتك. لقد هبط اليأس على البشر، وهم مشغولون بترك أثرٍ بعد موتهم، مؤمنون أن لا معنى لوجودهم في سبيلٍ غير ذلك. يحلم المرء منهم، أن يبني جسرًا نحو أرض المستقبل، ليتنفّس الخلود، ويعيش أبدًا في رؤوس سكان الغد. وقد تُلام لأنك لست على ملّتهم. يقول لك واحدٌ منهم: ''عليك أن تترك أثرًا خلفك. عليك أن تُغيّر وتجعل حياتك جديرةً بالمعنى.'' وإن كفرت بملته قال لك: ''لا تفعل شيئًا إذًا. وابق هكذا، عبئًا على الحياة. لا معنى هناك لوجودك.''.

عبقرية هي السمكة التي تفوقت على نفسها، وطارت فوق البحر. غير أنه من غير الأخلاقي، أن أطالب الحوت بالشيء ذاته، وألومه فيما بعد على عدم تحقيقه. أليست القدرة ذاتها، محضُ قضاء وقدر؟

أنت أيها الإنسان، غير مطالب بالتّبرير عن وجودك، فهو على كل حال، لم يكن قرارك. لا اسمك ولا عبقريتك ولا وطنك كانوا ضمن اختيارك. لقد زُجّ بك في العالم من غير جريمة. ومن يجرؤ أن يطالبك بشيء بعد كل هذا؟ أوليس التّحمل وحده، والصّبر على كل هذا الاغتصاب، قوةً بحد ذاتها، وفخرًا بهذا الكم الهائل من الجَلَد؟

أنا لا أدين بشيءٍ للعالم، بل هو المدين لي بالكثير. ماذا أعطاني، حتى أراه يقف على قارعة الطريق كمومس، يطلبُ مني شيئًا بالمقابل؟ وإن كان قد أكرمني بهباتٍ لا تحصى، وأنا عاجزٌ عن إدراكها، من قال إنني قد طلبت كل هذه الأشياء، في بادئ الأمر؟ صحيح أنني أنسى كثيرًا، لكنه من غير الممكن أن أكون قد طلبت الوجود في قعرٍ مخيفٍ كهذا المكان.

سيسألونك أن تفني حياتك في التّشييد والبناء، لمن كل هذا؟ للأجيال القادمة، سيقولون لك. ولكن من أعطى قيمة لحياة القادمين أعلى من قيمة حياتنا نحن، لنقدم لهم حياتنا هكذا بلا مُبرر؟ من نصّ علينا هذه المسؤوليات اللاذعة تجاه أُناس المستقبل؟ وإن افترضنا أننا نملِك هذا الكّم الهائل من الإيثار والغباء معًا، فهذا لا يعني أبدًا أن القادمين، لن يعملوا هم أنفسهم، للقادمين من بعدهم. إلى أين نحن ذاهبون بكل هذا

إذًا؟ متى تنتهي هذه السلسلة من العُبودية والتّطلّع إلى الحلم الأصعب، في جعل سُبل العيش مُيسّرة، وترقية الإنسان لما يشبه الإله، وإنزال الجنة على الأرض؟

الحقُ أن شراسة الحياة، لم تتغير من ظهورها حتى هذه الساعة. فكلما أترفوا العيش أكثر، زادت حساسية الإنسان الجديد تجاه الأشياء. وبالتالي نكون قد خرجنا مقفرين، تمامًا كما دخلنا.

إني أبارك كل امرئٍ استطاع أن يظفر بأثرٍ عظيمٍ تركه خلفه، لكنه لا يملك أدنى حق في أن يطالبني بفعل الأمر ذاته، أو الموت في سبيل المحاولة نفسها، أو حتى أن يعدّني في زُمرة العاطلين الزائدين على الحياة. فكل ما فعله هو كان اجتهادًا منه، لا واجبًا عليه. وبالتالي من المُشين عليّ أن أحتقر الفلاّحة لأنها لم تفكر بالنظرية النسبية قبل آينشتاين، أو أذُم المشرّد لأنه لا يملك دهاء نابليون، أو أُنزل من شأن راعي الأغنام، لأنه لم يُصطفى نبيًا من السماء.

كلٌ قد فُطر لصنعته، وتغيير ذلك، أو الترغيب به، جناية بشعة للغاية. والجريمة كل الجريمة، في أن يلام الإنسان لأنه لم يصبح شيئًا عظيمًا في شريعة البشر، مما

قد يقذف بذلك المرء لدرك الخيبة والإحساس بالفشل، ويخلق إنسان العصر الحديث، صاحب الكبرياء المهزوز، والقلب المحتقر لنفسه.

أيها الناس؛ أنتم أبرياء، وغير متّهمين بالحياة. اخلعوا ثوب القُنوط الذي تلبسونه إذ لا دَيْن عليكم. كونوا أحرارًا باختيار طريقكم. لا تذهبوا وتطرقوا أبواب المجد وثيابكم بالية، ولسانكم مكسور، ونفوسكم دنيئة تطلب الرحمة. لا تشحذوا العظمة بل كونوا جديرين باستحقاقها. لا تجعلوا الجلال غاية، بل نتيجة. لا تضيعوا حياتكم سدىً في سبيل الرفعة الظاهرة بين الناس، فرفعة النفس أولى، وهي في الحقيقة، من سيقودكم حيث تتوقون، إلى جبل المتفوقين والمصطفين.

لقد سُلبت منا حريتنا، في اللحظة ذاتها، التي جئنا فيها من غير استشارة. لقد زُجّ بنا في السّجن، وصرخوا وهم يوصدون الباب: أنتم أحرارٌ هنا، فمارسوا حريّتكم! ووحده ذاك المعتقل، الذي أبصر الأصفاد في معصميه، يُدرك أن العالم زنزانة، نافذتها السّماء. وأن كل هذه الأبعاد الهائلة، ضئيلة، وأضيق من ولادة حلم.

أي حرية، وليست اللحظة الراهنة سوىٰ نتيجة حتميّة لأحداث الماضي، وحدث ضروري لوقائع المستقبل؟ إن الزّمن قيد، يحادد الإنسان لخلق ذاك الحدث المروّع، المسمىٰ بالتاريخ.

وليس الزمن، إلا تابوتَ يقبعُ الإنسان فيه. وليست حياته، إلا قرعًا وضربًا علىٰ بابه المغلق. ولا سبيل هناك، إلا بانتظار القدر، الذي يحملنا علىٰ كتفه، ليصل ويشيعنا أخيرًا، إلىٰ الهاوية.

لا شيء مجاني في الواقع. حتىٰ وجودك، ستدفع ثمنه غاليًا. لا مفر من ذلك. أين السبيل، والسماء هناك دائمًا لتذكرنا بأننا في قاع الهوة. والأرض لا تفتأ تمضي أبدًا في الفضاء، كموكب جنازتنا، لا تزال تنشدُ قاعًا يرضى بأن يقبرنا. لقد صرنا أوسخ من أن نُبتلع.

إننا المسؤولون، عن الانحدار الذي هبطنا إليه، بكسلنا وأنانيتِنا وطمعنا. إن العالمِ يحتضر، وقد طالت ساعات عذابه. كالمريض الذي لا أمل في نجاته. وبدلًا من أن يموت، يظلّ معلقًا بالحياة بحبلِ المكابدة والألمِ. مما يدفع أمه، التي هي أمه، وكل الذين

يحبونه، لأن يرتجوا له الموت، لكي يسكن، ويرتاح أخيرًا. كذلك أنا الآن، من منطلق الشفقة، أشتهي الفناء للعالم، الذي صار وجعه لا يُحتمل، وبالموت، ألتمس له الرحمة.

وإن كان ثمة معنىٰ للحياة حقًا، أم لم يكن، فهذا أمرٌ لا يعنينا. لأننا لسنا أبناءً للحياة، ولا مقيمين فيها. وإنما نحن هنا، نقبع كعابرين، زوارًا خفيفين، لم يحظوا بكرم الضيافة. أهناك من يؤثث جسرًا؟ أليست غاية الجسر، هي العبور؟ القضية ليست من شأننا، فالأشجار أولىٰ بها، إذ أن زيارتها أطول، ورغم ذلك تراها تنعم بهذه النزهة علىٰ الأرض. تتشمس في الصباح، وتنام في المساء. ولا تتكالب كما نفعل علىٰ الدّراسة والبحث، محاولةً القبض علىٰ معنىٰ لكل هذا. علىٰ المرء أن يكون شجاعًا كفاية، ليتلقىٰ هذه الحقيقة، ولا يجهد نفسه كالزائر الوقح، المسعور في اكتشاف بيت المضيف.

وإن كنت أضعف من أن أواجه خواء المعنىٰ الذي نعيش فيه، فعلىٰ الأقل سأخلق هذا المعنىٰ، ولن أستعيره. حتىٰ إن مت، سأقول إنني عشتُ حياتي أنا، بإخفاقاتها وخرابها، ولم يرصفها أحدٌ غيري.

غير أن ترصيف طريق جديد، وسط كل هذه الطرق الوعِرة، يتطّلب أن ندفع الثمن في سبيله، وهو باهظٌ للغاية.

قد أبدو كمن يبالغ في اتهام وجوده، وتبرئة نفسه من كل باطل. ولكن الأمرين متماثلان في باطنهما. فجزءٌ من بليّة الوجود، هي أن أكون الشخص الذي أنا هو. لا تكمن القضية في أنني كنتُ أريد أن أكون شخصًا آخر، أو ألا أكون نفسي؛ بل القضية تكمن في أن أكون شخصًا بحد ذاته، أكان هذا الشخص أنا أم غيري؛ أن أكون جزءًا من عالمٍ لا أريده. أن أكون مخلوقاً قابعاً في صندوق. أن أكون نِتاج سُلالةٍ أبغضها. لقد كانت مشكلتي في الأساس هي في أن أكون شيئًا، لأن هذا الشيء بطبيعة الحال؛ يفوقني. وهذا يقودني أحيانًا لأفكارٍ لستُ متأكدًا إن كانت تعزيني أمْ تثبطني أكثر. كالتفكير بسعادة الشجرة لكونها شجرة، لا إنسانًا. وبتأمل الجدار الطويل الهانئ، وبرقاد النجوم الأزلي حتى لحظة أفولها.

إن بشريتنا لعنةٌ علينا. وفي هذا الكون الهائل، ووسط كل هذا الخلق العظيم، الإنسان أقل الكائنات سعادة.

قد يتعالى البشري على غيره من الخلق بملكة التفكير، ولكن مصدر الفخر هذا، هو ذاته مصدر تعاسته. التفكير لا ينبع إلا من عدم رضا، من رغبة في التغيير، من ملل. ويأتي هذا الملل بالذات، كذلك، كصفة بشرية بامتياز، لم يُلعن بها مخلوق عدا الإنسان.

وعلى هذا، فإن أجمل أشكال الفردوس، هو اقتلاع العقل من الإنسان. فلا سعادة أبدية هناك، إلا بهذا. فوحده العقل، هو المسؤول عن عدم اتفاق البشرية على شكلٍ واحد للفردوس. حتى الصورة الأعظم لها، اتهموها بأنها ستولّد الملل حتمًا، مع طول زمن الأبدية.

ما فائدة التكالب خلف المعرفة، إن كنا سعداء؟ لم كان علينا أن نتحمل ثقل الحقيقة، رغم أننا لا نعرفها؟ إن المجنون أسعدنا. وحده تمكن من استحضار الجنة، قبل أوانها. وكأن الله لم يرضَ على أُمةٍ منا، إلا المجانين.

لقد عشت حياتي كلها، برفقة شعورٍ بالخزي لا يفارقني. خجلٌ من كوني لست قويًا كفاية لتحمّل الأفكار وغموضها. لم آتِ محصنًا من رعب تشعبات الضياع اللانهائية. ورغم ذلك أردتُ دائمًا أن أعيش السعادة، وهذا ما دفعني في النهاية، استسلامًا لا قوةً، للتوغل في هذه المتاهات، وكسر خوفي منها بالاستكشاف، حتى وجدتني في نهاية المطاف، بطريقة لم أتصورها بتاتًا، وقد وقعت في حبها.

لقد أولعت بضياعي. ورضيتُ بقدري أن أكون تائهًا أبدًا، أُفتش عن مخرجٍ من كل هذا الهذيان، بينما جميع من حولي كان يبحث عن مدخلٍ ليسكن به؛ كهفًا كان أم بيتًا. وكأنهم يرغبون بإطالة مكوثهم على الأرض، وكأني أرغب بتعجيل هروبي منها.

ولكني وجدتُ بأن التائه، أكثرُ البشر استقرارًا. يستوطن المجهول، ويسلك التّيه لا لغاية، إلا للتوهان ذاته. وجدتُ جمالًا، ورعبًا لذيذًا كذلك، في تفرعات الفراغ اللامحدودة. تعرفّت أخيرًا على السحر غير الموجود، إلا بالدروب الغامضة، ورحت أهيم خلف الغواية.

التائه لا يسكن مكاناً، ولكن الأماكن، كل الأماكن، تسكنُ في فضاء قلبه.

عندما مات والدي، حذّرونا جميعًا من البكاء. لا أدري، لقد اختلطت المفاهيم لدينا من صعقة الخبر، لربما كان علينا أن نضحك ساعتها؟ قالوا: البكاء لن يفيد الميّت. ولكن ماذا عن الحي؟ ألن يفيده قليلًا لو بكى؟ في اليوم التالي حذرونا من الحزن عليه، لأن الحزن لن يجلبه. ولكني لم أكن حزينًا لأنه ذهب، بل حزنت لأنني بقيت. هو أحسن مني حالًا، مهما كان شكل الضفة الأخرى. لقد اصطفاه الموت من بيننا، ليخلصه من عِبء أن يوجد. ثمة حسد عميق يحمله الحي للميت، ولهذا يحزن، ويبكي.

هل يحق لنا التحدث عن الموتى؟

لا بأس في ذلك. فهم يتشبّثون بهذا الفتات، ليبقوا في العالم. لا يريدون أن يرحلوا كليًا. ولهذا يجتهدون في الحياة قدر ما استطاعوا، ليبقى اسمهم مذكورًا. بينما المنسيون منهم، أولئك هم الرّاحلون كليًا إلى العدم.

عند الحديث عن الموتى، تزداد كثافة الهواء من أشلائهم. تعود بعض أعضائهم للحياة، وتتجوّل بيننا، حتى ما ينتهي الحديث عنهم، فيختفون مجددًا. ويستمر هذا الحضور والنفي، حتى يُنسوا تمامًا.

غير أن الحديث يكون مضرًا، إن كنا نتكلم عن المنتحرين. لأنهم يرحلون عكس الميت العادي، بلا إرادة في البقاء. الحديث عنهم ينتشلهم من العدم، رغمًا عنهم، وينشرُ عبقهم مرة أخرى في النسيم. ترديد اسم المنتحر يعذبه، يرجعه للعالم، يُعرقل انصرافه.

ثمة حياة في الحديث عن الموتى. ثمة موت في الصمت عن الأحياء. واجبنا الأخلاقي يملي علينا ألا نتحدث عن المنتحرين خاصة، فهذا ضد رغبتهم في عدم الوجود.

أتوجد وسيلة مثلى، لكي يقضي المرء من خلالها وجوده، بأقل ضررٍ ممكن؟

لا طائل هناك، من النشاط الذهني. فللمعرفة لذة لحظية، تخبرك بأنك فطن، وأن باستطاعتك أن تفهم العالم من حولك. ولكن في اللحظة التالية مباشرة، يتّسع الضياع، أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

وحده النشاط الروحي، فنيًا كان أم دينيًا، قادر على أن يصرع اليأس، ويحقق أصالة الذات المرجوة.

أما النشاط الجسدي، فهو الذي يرهقني. قد يكون الكسل، أكثر صفاتي التي أمقتها، وأقدّرها في الوقت ذاته. ثقلٌ سابغٌ لا مبرّر له. غير أنه يهبني من الطمأنينة ما يكفي، لمواصلة يومي بهدوء. لا يضطرني لقتل أي غريبٍ في الشارع، لتفريغ كل الغضب الذي يجتاحني على الدوام، من غير أدنى سبب.

ولكن هل على المرء أن يخرج كل يوم، ويتجول في شوارع العالم المريعة، ليدّعي العيش؟ إن الأمر يتطلب قدرة عظيمة، على كَبت القيءِ في أسفل الحلق، أثناء ممارسته. فللعالم شكلٌ مقرفٌ، أكثر من هيئة الإنسان ذاته. غير أني عندما أتأمل المرآة، أحار حقيقة أيهما أكثر قرفًا.

من الأسهل أن يحتجز المرء نفسه في حجرته، ويوصد الباب. فهكذا آمَن، هكذا أرقى. وحده المشي في أقاصي العزلة، والتهام اليأس بشراهة، من شأنه أن يعيد للمرء بشريته المفقودة.

أنا أحد أولئك الذين يحصّنون عزلتهم بدهاء استراتيجي مُحكم، ومع هذا، يفشل في حمايتها كل يوم. إن الحياة ترعبني، بصورةٍ مستفزة، رغم أنني لا أتوقف لحظة عن التأكيد على تفاهتها. ثمة أمرٌ مُضحك في خضوعي لها. لقد خسرت فيها كل شيء، كل ما أملك، ومع ذلك، لا أطالب بأيّ تعويض.

لا أتطلع إلا لأن ينتهي الأمر برمته، وأنساه. كما ينسى المرء كابوسًا مريعًا، عندما يفيق من رقاده، ويتأمل السماء المشمسة من النافذة، بذهنٍ صافٍ، لا خدش فيه من رعب المنام. فينطلق خارجًا من المنزل، ليستحمّ بدفء شمس الخريف، ويتنشّف بالنسيم البارد، المتعفف عن أرقّ حبة غبار.

غبـار

لماذا كلما اتضحت الرؤية، جاء الغبار؟

»كائن ينتحب في الفردوس«

العدم حيوانٌ مفترس. يتقيؤنا عندما نأتي للوجود، ويلتهمنا من جديد عندما يجوع. له فكٌ هائلٌ، يكفي لابتلاع حيواتنا، وطحن عظامنا. ومن منخريه المُشعرين، ينفثنا من جديد على شكل عجاج.

فالغبار إذًا، هو ما نتن من أرواحنا. يسترجعه العدم لنفسه، ليخلق من نتننا أناسًا جددًا. نحن ما نتن من أرواح أجدادنا. نحن بناياتٍ مبنية من خراب الأزل. ولا مناصَ من أن كل هذا التراب، يُفاقم شيخوختنا، وتعبنا، وعدميّتنا.

يصيحُ العدم أحيانًا، كوحشٍ برّي، فتجتاحنا العواصف والزّوابع. إن الغبار مادة العدم الخالصة. أنفاسُ هذا الغول الجاثم على اللاشيء. وما إن يتفشى في الهواء، حتى تتلاشى رؤيتنا، ويضيع السبيل، ويتكسر كل حلمٍ تاق لنهاية الطريق.

العواصف هي السديم البشري. يسبحُ في أشلائها الأسلاف والأبناء. الراحلون من الحياة، والقادمون إليها. تنطوي في باطنها مادة الخلق الأولى. فلذات الإنسان قبل التكوين، وبعد الإبادة. وليس كل هذا العجاج، الذي يُقلِص بصيرتنا، سوى إنسانيتنا المتجسّدة، التي تحدّ إدراكنا، وتعيقنا عن رؤية الجدوى، وسط كل هذا العبث.

ويُشير كل هذا، إلى أن الغبار، في الحقيقة، هو الذي يقف حائلًا، بيننا وبين فهم الوجود. يتجلى كعوائق، ملهيات، حواجز تعيقنا عن الوصول. وللقبض على هذه الحبات الترابية، سأصوب إصبع الإتهام، إلى بعض هذه التجليات الخفية، التي تبينتُ لاحقًا، أنها ليست إلا ترابًا عائمًا في الفضاء، يحدّنا عن المضي.

الأحلام غبار. فُتاتٌ لعينٌ في جيب الجفنِ، يحول بيننا وبين النظر فيما حولنا. يمنعنا من رؤية الأشياء، والتمتع بجمالها. يشغلنا بشيء غير موجود. يطردنا من اللحظة الحاضرة، ويحجزنا في مستقبلٍ هيولي، لا أساس هناك ليدعمه، غير وهم .

لقد تمنيتُ أكثر مما ينبغي، وهذا ما يجعلني الآن مُتعبًا أكثر مما ينبغي. لقد أصبحتُ متورّطًا بحشدٍ من الأحلام جائعٍ. لا أعرف إطعامه، ولا يعرف الموت.

رغم أنني لم أتخطّ عتبة الخامسة والعشرين، إلا أن كمّ المطامح التي شيدتها حتى الآن، تكفي حشدًا من الرجال غيري. لقد تمعّنتُ في كل المقاصد، واستعذبتُ المضي خلف كلٍّ منها. وقفتُ ألمحُ في كل طريقٍ يصادفني، حلمًا جديدًا أتوق إليه. أتنقل بالنظر بينها، كصيادٍ يتربص قطيعًا من الغزلان يحيطه، ولا يعرف أيّها أطيب لحمًا. صرتُ محاصرًا بالمآرب، وبدلًا من أن أنطلق كالسّهم في واحد من هذه الاتجاهات، أرخيتُ قوسي، وبقيت متحجرًا في مكاني، أتفكر في كل الاحتمالات.

في الحقيقة، كان الأمرُ مسليًا. أن أضع لحياتي في كل يوم، مخططًا جديدًا. أن أولد وأموت، بشكلٍ يومي. أن أبدأ الحرث مع طلوع الفجر، وأحرق الحقل على مشهد المغيب. أن أحيا كل يوم حياة جديدة، كاملة، وباهرة. كان الأمر يلهيني عن فداحة

العيش، برفقة حلم. ولكن، وكما هي السكرات دائمًا، لم يستمر الحال كذلك. بدأتُ أدرك أن الوقت بدأ ينفد مني. لقد أنشأ العمر يمضي بالفعل، وراحت الأيام تهرب، ولا شيء مما خططت له جاء في المقابل. رحت أتقصىٰ جديًا بمصيري، وسألت نفسي بتفانٍ؛ ثم ماذا؟ هل عليّ أن أوجّه القوس الآن، في هذه اللحظة، وأختار وجهتي؟

كان يروعني كثيرًا، أن أرسّخ حياتي كلها، لهدفٍ واحد. أن أختار شيئًا واحدًا، من كل هذه الخيارات اللانهائية التي تُحيط بي. أن أصرف عمري في تحصيل، ما يبدو لي، أشهىٰ ثمراتي. ولكن كيف لي أن أضمن أنها كذلك حقًا؟ ماذا لو كان الطريق الذي أنهيته، لم يكن طريقي؟ وماذا لو كان ما ظننته جبلًا، لم يكن إلا هضبةً حقيرة؟ وماذا لو كان النور البعيد الذي تُقت إليه، لم يكن سوىٰ جحيمٍ مشتعل؟ وماذا لو اكتشفت كل هذه الحقائق المفجعة، بعد فوات الأوان؟

خشيتُ ساعتها، ألا أكون في النهاية، سوىٰ رجلٍ حلم بكل شيء، ولم يفعل شيئًا. خشيتُ ألا يكون ركضي العنيف هذا، سوىٰ قفزٍ بليد في مكاني. فسألت نفسي، هل عليّ فعلًا أن أمضي في طريقي مُحمّلًا بعبءٍ ثقيلٍ كهذا؟ ألا يوجد سبيلٌ آخر للمضي في الحياة، غير الرجاء، والأمل بتغيّر الحال؟

لا أريد أن يقلقني، كلما صحوت فجرًا، كم سأحصد في هذا اليوم، وكم سأبيع، وكيف سأصرف ما كسبت. وعوضًا عن ذلك أريد أن أتأمل الشروق بقلبٍ حُر، لا يُقلِقه توقّع، أو يغريه رجاء، أو يقيّده أمل. لا أريد أن أشحت المضي، باختلاق الرّغبات. أكره أن أقضي حياتي لاهثًا، أعدو خلفَ حلمٍ، يسكن خلف القفار والوعار. وأن أتسلّح بالهمّة، وأدفع عمري وجهدي، كمقابل للوصول. ولأيّ شيء؟ فما إن أرتقي قمة الهضبة، حتىٰ أراني أتوق لأعالي الجبال. ولا تلبثُ الرغبة فيّ بأن تتحقّق، حتىٰ تلد من أحشائها آلاف الرّغبات. ولستُ أستطيب صرف عمري، لحالةٍ إن تحققت، لن تُبهجني إلا ساعة زمن، قبل أن يبتلعها الاعتياد.

وهذا ما يقف وراء إرادتي في التخلص من كل احتياجٍ ناقص. وتلهّفي لأن أكون حرًا، لا عبدًا لغايتي. وحتىٰ إن وصلت، كما يفعل الكثيرون، وتحقق الحلم الكبير، فليس لذلك أن يرفع من شأن نفسي، إن كان ذاك هو مطمحي. فالذي يستنقص نفسه، ولا يرىٰ قيمتها إلا بانتظار شيءٍ عظيم، سيظل أبد الدهر ناقصًا، يتوق لشيءٍ بعيد.

أدركت أن استهزائي القديم بالأحلام، كان أرقىٰ ما فعلت في حياتي. كنت أكبر من كل رجاء. حرٌ، أنتصر علىٰ كل المآرب. أُغسّل قلبي من كل شهوة، بين ليلةٍ وضحاها. ولكن من أين لي قلبًا شجاعًا، كقلب الفتىٰ الذي كنته؟

وعلى كلٍ، يبدو لي أنني وقعت في ورطة أخرى. لقد شيدت لنفسي رجاءً جديدًا، لمجرد رغبتي في التخلص من كل رجاء. صرتُ عبدًا، لتوقي إلى الحرية. إذًا لقد علَقتُ في قعر الوادي، المؤدي إلى قمم الجبال. ولسعتني النار، التي أضرمتها لحرق الأوهام. آه، أي مأساة!

صار الحلم في ملّتي، أمرًا مبتذلًا. وليست المطامح البشرية في نظري اليوم، سوى أوهامٍ محضة. ولا يبدو لي الإنسان في طبيعته، إلا كائنًا توّاقًا. لا يعرف ما يريد. يتخبط طويلًا، حتى يسقط أخيرًا، عندما ينهكه التعب. أبدًا يعدو خلف السّراب، مؤمنًا في قرارته أنه الخلاص. وما المطامح والأحلام وكل هذا الهراء، إلا أسبابٌ يتخذها المرء للمضي. هي الجزرة، المربوطة بالعصا. هي القيد، المسمى بالأمل. هي الجنة الموعودة، التي تقبع دائمًا، في الجانب الآخر.

ومهما سعى المرء، لا وصول له. فكل وجهة، ستصير محطة. وكل قمة، ستتحول لدرجة. كدوران أبدي، لا ينتهي، ولا يحتمل أي وصول.

إن القضية هنا، لا تتمثل في التخلص من الحلم، ولكن في طرح الحلم عن طريقنا، لنعرف المضي. هي دعوة للتخلص من الوهم، والعودة إلى الواقع، للتعرف على

مقدرة الإنسان الحقيقية، والعمل بها. هو نفض لهذا الغبار الرومانسي، الذي يملأ رؤوسنا، بلا طائل. فالأوهام تتجمع حول الرأس البشري، كما يتجمع النحل حول الخلية. وفي مرحلة معينة من حياتنا بعد معاشرة جمهور الأوهام الذي يسكننا، مدة كافية لمعاينتها واختبارها، سيجيء زمن، علينا أن نعمل فيه على النفض. فبغيره؛ لن نحظى أبدًا بالعسل.

المعرفة كذلك، غبار. فالإنسان المتعلّم، مخلوق كئيب. سلبت المدرسة منه، كل سبل الدهشة. وأعطته حقائق مفجعة، ليس بمقدرته أن يتحملها.

لا أنسى ذاك النهار، عندما سألنا المعلم: مِمَّ يتكوّن جسد الإنسان؟ فأجاب أحد أبناء الوافدين مباشرة: ماء، كربون، أمونيا، ملح، كبريت، وكالسيوم. فرحت أفكر، هذه الأشياء متوفرة، في أقرب سوق مركزي بمدينتنا! شعرتُ بقرفٍ عميق من نفسي. أيعقل أن تكون هذه الأشياء الرخيصة، أنا؟ أهذا هو الإنسان فعلًا؟ وعرفت لاحقًا، أن الإنسان، غير مخلوق إلا من الخيبة.

لم يعد هناك ما يُدهش. لقد فهمت، أن لا أعاجيب في هذا العالم. كل شيء، خاضع للتفسير، وقابل للفهم، بشكلٍ ممل، يسلب الحياة منه. لا معجزات هناك، هكذا يقول العلم. ويسألوننا بعد كل هذا، لم تعبنا؟ وإلى أين هربت الدهشة منا؟ وليس كل ذلك، إلا أشياء صغيرة، مقارنة بالثقل الذي نحمله. وهناك في الحقيقة، أسباب أخرى. غير أن التعليم، والحياة المخطط لها مسبقًا، هي أمور درأت هذا التعب، وضخّمت هذا الثقل بالداخل.

إنها طرقٌ مرصّفةٌ بالقيود. صارت الغاية من ارتياد المدرسة، هي سراب السعادة الذي سيلقاه المرء، عندما يحمل الشهادة ويلهث بها إلى أقرب مؤسسة، لتهيئ له أحد سجونها وتقذفه فيها. فيتلقى منهم بفرح، الطعام والعلاج والأمان، وهو قابعٌ هناك ككلب، هانئًا سعيدًا بمصيره. وكأن الناموس البشري، ينص على التزام هذا الاتجاه، وكأن لا طريق للسعادة إلا من خلاله. طريقٌ أضيق من قدرة المرء على التنفس، وعيش الحياة.

أيُقاد المرء للسعادة بالسلاسل؟

ورغم كل ما قدمه لنا العلم، إلا أنه لم يكن كافيًا للطمأنينة. لقد زاد من ارتباك يقيننا، وزرع ارتيابنا في كل شيءٍ ألفناه. العلم خطوة هائلة للإنسان، ولكن بالعلم وحده، لا تصلح الحياة. نحن بحاجة لمعرفة أعمق من هذه، لخوض تجربة الوجود، بسلام.

عادة ما يقفز المرء لأحراش الذاكرة، عندما يخفق في صنع حاضره. وإذا ما تطرقنا إلى الماضي، ففي رأسي تخيلاتٍ عدة له، إذ لا ماضي حقيقي أذكره. وأنا أحتاجُ أرضًا ألجأ لها، كباقي البشر. ولأني لا أملكها، فقد اختلقتها.

لقد زعمتُ ذات مرة، بأني رأيتُ ملاكًا حطّ على غصن شجرة، وراح يبكي. توهمت بأنه كان فائقًا في سحر منظره. كنت أحتاج أن أدسّ مشهدًا كهذا، في تربة رأسي، لأبرر الجمال الذي أحسه كلما شاهدتُ أحدًا يبكي.

لم أكن ولدًا وحيدًا، ولكن لطالما شعرتُ بالوحدة. قالوا لي إخوتي، عندما أمطرت السماء ذات شتاءٍ بعيد: إن السماء تمطر فرحًا! فراحوا يلعبون ويتبللون، ولحقت

بهم. وقفت طويلًا تحت المطر، ولم أبتل. انتظرتُ وقتًا أطول، ولا قطرة لمستني. نظرت إليّ أمي ساعتها، بعينين جاحظتين، تدفّق منهما الهلع. وكأنها قد رأت مستقبلي بأكمله، في حدقتيّ الحائرتين. أجبرتني على دخول المنزل، وأنا أنشج باكيًا. سمعتها تخبر والدي ذاك المساء: '' لن يسّعد هذا الولد وإن أتاه الفرح على ركبتيه يستغيث.'' فجلستُ وحيداً أنتحب، بعيدًا عن الأنظار.

في اليوم التالي، سقط جميع إخوتي مرضى من المطر. وحدي، كنتُ السليم بينهم. من يومها، وأنا لا أحب المطر، ولا الفرح. من يومها، وأنا أسمي إخوتي وكل من يحب اللعب: مرضى الفرح. وأدركت أن الغبطة ترفٌ روحيّ، لا يعوّل عليه. وشكرت الحزن كثيرًا، إذ أنه صانني من السّقم، وزاد من بأسي.

هكذا هي السعادة، تسلِب كل طاقتنا للمقاومة، فنسقط من أول هجمة مواربة للقدر. وأصغرها، غياب مسبب هذه الفرحة.

تتطّلب السعادة الكثير من الجهد لاستحضارها. بينما الحزن، لا يطلب منك سوى الانتظار. ساعتها سيجيء إليك. يركع بين قدميك، ويحتويك بلا أي إذن، كاحتضان الأحبة بعد فراق.

إذًا، يمكن القول بأن الحزن، هو الحالة الطبيعية للمرء. بينما السعادة، هي شذوذ هذه الحالة.

السعداء، يُؤْثرون الحاضر على الماضي والمستقبل. لا يبحلقون إلا باللحظة الراهنة، لأن من شأن إرسال أي نظرة نحو السالف أو المُقبل، أن يُعكّر سطح غبطتهم. لا يسكنون إلا الزمن المضارع، وبالتالي هم يلازمون اللحظة الحاضرة، يوجدون ويتلاشون على الدوام. هلاميون، لا جِذر لهم. أخف من ألا ينزاحوا برياح الزمن. إنهم في حالة مجيء ورحيل، خلق وإبادة، في اللحظة ذاتها. لا ذاكرة لهم، ولا أمل، ولهذا هم سعداء، ولهذا كذلك، لا وجود حقيقي لهم. إنهم يقبعون في مأزق الأبدية. كابوسٌ وجودي، لا نهاية له. إن مجيئًا واحدًا لهذه الدنيا، يكلف خساراتٍ روحية هائلة، فكيف بمجيءٍ أبديّ؟ كيف يكون دوام الحضور؟ إنه التجلي الأكثر رعبًا للجحيم. السعادة إذًا، هي الجحيم.

السعداء إن لم يستبدوا، فهم لا يؤَثّرون على العالم بشيء. وجودهم غالبًا مضر، وفي أفضل حالاته، زائدٌ عن الحاجة.

التاريخ مُلك للبائسين وحدهم؛ أولئك الساخطون الغاضبون المعذبون، الذين يستنكرون شكل العالم القماميّ. فالتاريخ لا يُكتب إلا بالدم والعرق والدموع، ولا حبر هناك للسعداء ليكتبوا به، غير اللعاب المتناثر مع نهاق ضحكاتهم، عاجلًا ما يتبخر لرائحة دنيئة.

السعداء راضون، والراضي سرعان ما يجلس ويتفرج، فيما الغاضبون يمشون ويعملون ويركضون. لو كان ثمة عمارة تحترق، والناس بالداخل يتوجعون ويصرخون. ما قيمة الجالس الذي يتفرج على هذا المنظر، لا يساعد بشرًا، ولا يطفئ نارًا؟ العمارة هي العالم. النزلاء هم البشر. الجالسون هم السعداء. أنا لا أطلب منه أن يشارك في إطفاء الحريق، إذ أن الجحيم لا تنطفئ أبدًا، وهو غير متَّهَم بوجوده على كل حال، وليس هذا من واجبه. ولكن على الأقل، عليه ألا يفرح بهذا المنظر، وينهق بقهقهاته. فالسعادة هنا، أحط ما قد يهبط إليه المرء. إذ لا يمكن أن يكون هذا الشعور، إلا نتاجًا شخصيًا، لا جماعيًا. مما يجعل مطلب السعادة ذاته، أصدق تجلٍّ لأنانية المرء. فسرعان ما ستزرع بهجته، الكآبة في قلب إنسانٍ آخر، فشل في الوصول لذات البهجة. لا تقصيرًا منه، ولكنه أقل حظًا من سواه. أليس الضحك في وجه الميت، دناءة؟ السعادة، هي مطلب السفلة.

حاولنا كثيرًا أن نجعل البشر سعداء أجمع، وأخفقنا. ولكننا إن جعلناهم جميعًا بِذات المقدار من البؤس، لهو خليقٌ بأن يجعل المرء على الأقل، راضيًا بقنوطه. فنكبة الفرد بؤس، أما نكبة الجماعة، سرعان ما تنقلب لفرحة، ولكنها فرحة شريفة، لأنها تتسع للجميع.

في البؤسِ غيابٌ دائم. توارٍ عن اللحظة الحاضرة. الحزين إما تجده متشبّثًا بالماضي أو المستقبل. الحزين لا يحضر أبدًا. ولِمَ الحضور، ولديه الحزن؟ إنما في القنوط ملّذاتٌ ومسرّات، لا يصدّقها العقل ولا المنطق، ولا يفهمها إلا المحزون ذاته. وعلى هذا، فأكثرنا حظًا هو الشيخ، لا يُحزنهم أن يروه متعبًا، مكسورًا، أو صامتًا. يحللون له ممارسة السأم واليأس والوحدة، وقت ما يشاء، من دون أي تطفّل، أو محاولة عزاء.

السعادة، هي لحظة التخلي عن العالم. أما البؤس، فهو مجد الإنسان على الأرض.

السرور شعورٌ مؤقت، يغشى النظر. غبارٌ مترف، يمنع من رؤية الحقائق المتجلية في ساعة الأسى.

أما الأردئ من السعيد، فهو المتفائل؛ المتنصل من الواقع. يعيش في عالمه الهلامي الخاص، ومن هناك، يطلق أحكامه على العالمِ الحقيقي. ويأتي ذلك عكس المتشائم، المنغمس في الواقع، حد الغرق.

المتفائلون، أّكثر الناس عرضة للخيبة. أجواؤهم لا تناسب المحيط، الراكع بدوره تحت وطء القدر. يمارسون التفاؤل، الذي هو تعصبٌ مستعر للاحتمال الجيّد، فقط لتهدئة النفس. يدفعهم للقول بأن كل شيء على ما يرام، في حين أنه سيّئ، بالغ في السوء.

التفاؤل مهرج، لا يصلح إلا لإثارة الشفقة. وعلى هذا، لا تقترف تفاؤلًا. إياك أن تعوّل على الآتي، فأرض المستقبل ماءٌ شفّاف، لا قاع له. وهل يمشي المرءُ على ماء؟ لم يقترفها إلا واحد، ما زال حتى اليوم معلقًا على صليبه. صليب الأمل في خيرٍ من هذا العالمِ.

ما وَضْع الإنسان فعلًا، من أساليب القدر؟ مهدّد، كورقة خريف. ترتجف دائمًا، وعلى وشك السقوط. بلا إرادة حقيقية، وتنصاع أبدًا لأمر الرياح. فتصوّر مثلًا، أن تنقطع رجلك اليوم، أن تعترف صبية أحلامك بغرامها لك أولًا، أن يُسلب وطنك وتغدو مشردًا في منافي الأرض، أن تصاب بالشلل، أن تربح ١٠ ملايين دينار في قرعات البنوك، أن تفقد كل عائلتك في حادثٍ مروع واحد. تصوّر فقط، أن يقودك القدر، لواحدة من هذه المنحنيات، ما الذي سيحدث حينها؟ انسلاخ تام.

لا مناص بأنّ، من شأن كل احتمالٍ من تلك الاحتمالات، أن يسحق المرء، ويخلقه مجددًا من الصلصال ذاته، في هيئة لا تشبهه البتة. فالأزمنة تتبدّل، وهذا من طبع الدنيا. ومعها الإنسان ينسلخ، كحيوان برّي، حتى يتمكن من المضي. يتبدّل، ليلائم بيئته الجديدة. يُغيّر أيدولوجياته، حسب ما تتطلبه الظروف. كشجرة، تتغير كل فصل، في سبيل التأقلم والنجاة.

الأمر شبيهٌ بعشيرةٍ من الرجال، تسكنك في الداخل. واحدٌ منهم يقود، والبقية تتبع. وكما تخضع عشائر الوجود للانتخاب الطبيعي، كذلك تخضع عشيرتك الداخلية، لآلية الانتخاب ذاتها، لاختيار القائد. فإن كان الطقسُ بديعًا، رشّحتَ الشاعر من

رجالك ليغني نشيده. وإن نزلت عليك كارثة من السماء، ستصطفي الفاجر من رجالك ليكفر بالقدر. وهكذا تتعاقب الأدوار. فتأمل ما في هذا الأمر من فظاعة.

وكلما زارتك حادثة، سيستولي عليك واحدٌ من عشيرتك، وسيموت هذا الذي أنت عليه اليوم. ولا سبيل هناك، لبعث الميت، وتعود ما كنت عليه ذات يوم. فالإنسان حرباء الزمن. يُبدّل لونه، كلما تغير زمنه. ولكنه لا يملك القدرة أبدًا، على تكرار اللون ذاته مرتين، لأن الزمن بطبيعة الحال، لا يتكرر بذاته مرتين. وإنه لعذابٌ عظيم، أن تبقى في إقليمٍ يليقُ بمن كُنته، لا ما أنت عليه اليوم.

وعلى كلٍ، فهذا كله لا يشير إلا لنسبية أفكار المرء وآرائه. مما يُشيد بزيف الإنسان، وبعده عن الحقيقة. وأن كل أفكاره، خاضعة أساساً لتلائم ظروفه الطبيعية التي يعيش بها. ومجَمع أفعاله، ليست سوى ثمرات جنته، أو ألسنة جحيمه. ومهما كان الإنسان واثقاً من قوله، فرأيه غير مُشيّد إلا من صلصال تجاربه، التي خضع لها طوال حياته. هل لك أن تشعر بهذا الكم الهائل من السّخف؟ ما أرخص هذا كله!

ولأنك تعيش، فأنت تتغيّر. والسّماء التي تُقت لها، ستدوس عليها. ومصيرك الذي رسمته، ستكفر به. وحلمك الأخير، سينقلبُ كابوسًا. والرّبيع المنتظر، سيجيء

خريفًا. وصديقُ الأمس، سيطعنُ يومك، ويبتلعُ غدك. والجحيم الذي تهابه، سيكون ملاذك الوحيد. وفِردوسك الذي تحتمي به، ستحرقه بيديك. وستظل تدفن نفسك، في التربة ذاتها، التي ستخلق منها نفسك من جديد، وحتىٰ يوم الدفن الأخير.

إن نسبية أقوالنا، غبارٌ كثيف، يحجب طريقنا. وعليه، ليس ثمة سبيلٌ لليقين.

لقد تعبت، من كل شيء. لا أعرف لم أبدو منهكًا إلى هذا الحد. متى شخنا إلى هذه الدرجة؟ وإلى أين هربت الدهشة منا؟ تلك أسئلة، لا يليق بها إلا العويل، كسبيل للعزاء. فالمرء منا يدرك أنه متعب، ولكنه يجهل، ما الذي يتعبه على وجه التحديد. كتنهيدة عميقة، بلا حزن. كصراخ مرعب، بلا ألم.

كيف لا أتعب، وقد جئتُ مثقلًا بكل هذا الغبار، ولا سبيل للرؤية بأن تقود الطريق، أو تفتش عن الخلاص. وهذا المستقبل السخيف، المرسوم أمامنا، بلا أي بديل، يعزّز الرّفض بداخلي. فكل شيء مخطط له سلفًا، ومحسوب. وهذا الخط التافه، هو قدر الجميع كذلك. وحياة حُزم أمرها مسبقًا، غير جديرة بأن تعاش. وهذا على كل حال، قد أتعبني مسبقًا، قبل الأوان. وهو أمر مؤسف، لكنه عديم الأهمية، لأنني لا أفعل حياله شيئا، ولا أحاول أن أغير فيه شيئًا. فكلنا ثوار على الحياة، لا على أنفسنا.

وللبعض، فالمستقبل يصبح أمرًا تافهًا. وخسارته، ليست خسارة حقيقية. فيتغاضى، ويترك العيش يأخذ مجراه. هل لك أن تدرك حجم هذه المأساة؟ ولكنها أمور، لا تُحس. على الأقل، في الوقت الراهن. حتى يجيء المستقبل فعلًا، فيصفع المرءُ جبينه؛ كتجسيد للندم الذي يغتاله. ويسأل نفسه: '' أي حياة، تلك التي عشتها؟ '' وعندما يلتفت، رغبةً منه في العودة من الطريق الذي أتى منه، سيكتشف أنه أضاع ذاك الدرب

القديم، ولا مجال له كي يعودَ مجددًا؛ إذ أن الوقت تأخر كثيرًا. هل لنا أن نستشعر هذه الوحشة؟ أي ضياع!

كل ذلك، حرّر الشيخوخة في داخلنا، أسرع مما يجب. لننظر إلى شباب اليوم. لقد شبعوا من الحياة مبكرًا، ولا أكاد أرى بينهم، من يتضوّر جوعًا للمغامرة، واكتشاف دروب الحياة الغامضة. فكل شيء صار مُتعِبًا، ومُتعَبًا، من كونه شيئًا. حتى الأرض، صارت مجهدة، من حملنا كل هذه الأزمنة على ظهرها.

راح الثقل يتفاقم. لقد تعبت، قبل البدء بالعمل. وليرتاح المرء، عليه ألاّ يرتاح. صرت في العالم، كشمعة مرمية في قاع البحر. كقنبلة فاسدة الفتيل. ككهف لا مدخل له. كبذرة مدفونة عند فوهة البركان. حتى الكلام، صار ثقيلًا عليّ. ولا طاقة لي، في معاشرة ضفادع المستنقعات، المنقنقة أبدًا. ولا أراني إلا ساكنًا في وحشة الجبال، أعوي أمام مشهد البدر، كلما اشتد بي الألم. فالعزلة جيدة لي، وكذلك الكتابة. لأن قياساتي محدودة، وهذا الكون لا نهائي. ولا أملك القوة الكافية، لأُحب الناس أجمع. ولا طاقة عندي، لكي أصلح نفسي، حتى يريدوني أن أنادي بإصلاح هذا العالم. فهو كثير، وأنا لا أستطيع.

وماذا أُعطي العالم، وأنا لا أملك شيئًا، ولا أريد منه شيئًا؟ أنا المريض الكافر بالدواء. أنا الدّب في فصل الشتاء. أنا الإوزة التي تتخلف عن السرب المسافر، في موسم الهجرة. أنا سدرة عجوز، أشغلُ حيزًا، ولا أبرح مكاني. جسدي يقطن جذع شجرةٍ أجوف، في غابةٍ بعيدة. وروحي كسلى، نائمة منذ عصور، كجنّي المصباح.

وأتابع المضي في الشوارع، ككتلة من الغبار. وأسمع مناديًا يصيح بي: '' أنت ثقل، أنت سبب تأخرنا ''. فليكن. لا ضير عندي أن أكون العالة على تقدم البشرية نحو فنائها. وقد أكون ثقلًا بالفعل، وسيّان عندي لو رُميت من قافلتهم. فالمضي على الأقدام، أسرع وأخف. والوجهة التي أقصدها، على كل حال، بعيدة، بعيدة كل البعد عن مقصدهم.

إن غربتي بين الناس، كغربة الصبي في يومه الأول من المدرسة. وشعوري كشعور ممثل على خشبة المسرح، فقد ذاكرته فجأة. ما عدت أفهم شيئًا. وهذا يفوقني كثيرًا. ألا يسمعون العالم، كيف يلفظ أنفاسه الأخيرة؟ ألم يصغوا من قبل، لكحة هذا الرجل العجوز؟

قد أكون في نظر العالمِ، كذاك الذي يمجّد الكسل. غير أنني، في الواقع، لا أرىٰ جزرةً من أمامنا فحسب، بل أراها مربوطة بصنارة، يحملها ذاك الذي يمتطينا. فما فائدة عدِّونا؟ ويُقال، إنه لا يوجد مشهد أكثر كآبة، من شابٍ مُحبط. لكني متأكد، بأنه ليس أشدّ بؤسًا، ممن يعدو خلف الشمس، خوفًا من هبوط الليل.

آه، أنا نفسي ما عدت أفهم هذه الكتابة. ومهما قلت، فأنا أثرثر. لكنني أعلم، بأنني ذات يوم، سأطوي خيمتي، وأرحل بعيدًا، لمكانٍ قصيّ، خارج الحدود، نحو الفجر. وهناك... سأرتاح.

آهِ، كم سأرتاح.

كيف إذًا، سينقشع الغبار؟

إن الكتابة فعلُ نفض. محاولة لإزالة فُتات العدم المتشبّث بنا، والامتلاء بالحياة. تخلقُ حيزًا كافيًا في الفضاء، لينسلّ الأكسجين. هي المكنسة، لمسح أكوام الغبار الجاثمة على الروح.

تهبني الكتابة القدرة، على إعادة تشكيل حياتي. أستحضر بها العالم، وأحاكمه. إنها أداة للإدانة، للخلق، للترميم، والعظيم منها يستخدم للتدمير.

اللغة هي خدعة السحرة، الذين يدّعون أنفسهم كُتّابًا. رغم أنها لا تملك إلا تسعًا وعشرين بلاطة، إلا أنها تتسع لكل الرقصات.

اشهر سيفًا، وسيخشاك خصمك. احمل مطرقة، وستنهار الجدران. ارفع صولجانًا، وسيركع الشعب. أمسك قلمًا، وسيُعِد العالم كلّه من أمامك.

الكتابة بحد ذاتها، ثورة. دليلٌ مباشر على أن هذا العالم، لا يعجبنا. الكتّاب هم أولئك الذين يملكون في جعبتهم، عالمًا أفضل. هم أولئك الذين فضلوا التّحديق في صفحة بيضاء فارغة، على النظر في وجه العالم.

ولأن ثمة ما تبقى من نفخة الله في أعماقنا، ولأن التاريخ لا يعيد إلا نفسه، فنحن لا نملّ من المحاولةِ دائمًا، لأن نعيد تلك اللحظة القصيّة، التي كتب الله فيها حكاية الوجود، ومقادير الخلائق.

المكتبات متّخمة بمحاولات البشر البائسة، في خلق بدائلٍ جديدة. ورغم خيبة كل تلك التجارب، إلا أنها أتت مرممّة، مجمّلة، لما قد خُلق وكُتب بالفعل. كان من شأن الله أن يخلق عالمًا كاملًا، غير أنه تركه ناقصًا، وخلق الكتّاب ليتمّوا هذه المهمة من بعده.

الكُتّاب لا يتوقفون عن التصليح. الكُتّاب هم مرمّمو الوجود.

إنه زمانٌ سابغ. صار العيش فيه، مطّمحه غاية. وبات الحديث عن الموت، متداولًا، وأكثر أُلفة. اتسع فراغ النّفس، وتضاخمت وحشتها، فراح الإنسان ينشغل بأمر نفسه، حتىٰ ضاع فيها. انتشر الفساد، وصار أكثرنا غربة عن محيطه، أقربنا للنجاة. وبدلًا من أن يتحرر العبيد بالدين، استُعبِد به كل الأحرار. والوطن الذي شيّدناه لينظم حياتنا، وجدناه وقد صار ذريعة لقتلنا ونهبنا، فبتنا ضحية ما صنعنا.

تلك أمورٌ تجعلنا نموت. تلك أمورٌ، لا يليقُ بها إلا السّكوت. متىٰ يرحل الغبار، وترجع الرؤية؟ ما عاد الموت يعرف طريقه إلي، ولا عدتُ أستبصرُ طريقي إلىٰ الله. متىٰ ستنكسر الأشياء، ويستيقظ المكان، ويرحل؟ متىٰ سينام الزمن أخيرًا، ولا يصحو أبدًا؟ متىٰ تصمت الرعود، وتحضر الملائكة بمزاميرها والدفوف؟ متىٰ ستنتهي هذه الحفلة الجنائزية، ويسكن كل هذا الصخب؟ متىٰ نفيقُ علىٰ البوق، ونحضر جنازة الوجود، لنشيعه مع الله، لمقبرة العدم؟ آه، لماذا كلما اتضحت الرؤية، جاء الغبار؟

إن الأرض ضيقة، ونحنُ كثيرون، كثيرون للغاية! وهذه الحياةُ طويلة، أطول بكثير من القدر الكافي لليأس، وطويلة كفاية لأن تطرّز الروح بالملل.

مـلل

مواجهة مع خواء المعنى

»كائن يلتهم الأبديّة«

ملل.

وثُبِتُ في عمرٍ مُحرّمٌ فيه اللعب. البراءة، منحورة. الضحك بأعلى صوت، قلة أدب. البكاء، يجرح الرجولة. الصمت، دليل غرور. التفكير، عواقبه وخيمة. كل الأجوبة، جاهزة، قديمة، وموجودة عند الشّيخ وحده. أما الأسئلة يتيمة الجواب، مُحرمة. الفلسفة، لا تجاوب عن شيء. الشِّعر، كاذب. الموسيقى، هابطة. الأدب الجديد، أهبط. الحُّب، مُبتذل. العُّشاق، يعشقون خِفية، كاللصوص. الترتيب للزواج، صار أصعب من التّحضير لشهادة الدكتوراه. حتى النوم، صار مستعصيًا، من غير قرص ڤاليوم.

ملل.

الأحد كالثلاثاء، والإثنين كالأربعاء، والجمعة كالسبت. العمل روتيني، متكرر، ثقيل. مكاتب متشابهة، وهواتف لا تتوقف عن الصراخ. شماغ منتشٍ، وذقون ملساء، كبلاط مستشفى. أُكلّمهم، وغيري من خلالي يتحدّث. تلاحقني، آرائي التي لم أعبّر عنها. تركُل معدتي، كلماتي التي ابتلعتها. تُثقلني، جبال الرّفض التي أحملها. آه، ألا يكون الإنسان، أكثر بشريّة، إن أغلق الباب على نفسه، واستوّحد؟

ملل.

أفتح الصحف، ولا جديد. تبدأ العناوين ببشتٍ يُسلّم على بشتٍ. بشتٌ يهنئ بشتًا. مقالات غير قابلة للقراءة. قصائد نبطيّة رخيصة، لا تتناول إلا القبيلة وتفاصيل جسد المرأة. إعلانات مزيفة. أخبار مجلس الأمة، الذي لا يمثّل الأمة. من يسرق فيهم، يطمع. من لا يقدر أن يسرق، يعوي. آسيويون مقبوض عليهم. مستجدات الثورات. ما أن تؤمن بمبدأ ثورة، حتى يشوهها الثوار. أخبار فنانين غير مهمين. مواعيد دقيقة جدًا للصلاة وعبادة الله، وأخيرًا، تنتهي الصحيفة، كما تنتهي كل صحفنا، بالموت، بأسماء الوفيات، ولا أحد يعتبر.

ملل.

أفتح التلفاز، فإذا بدراما محلية ضعيفة، أضعف إخراجًا وتأليفًا، من نشرة الأخبار. تُغير القناة، فدراما تركية، كأفيون لفاقدي العاطفة. يتفرّج عليها المتزوجون، بهمّة وحذر. الزوجة ذابت بالبطل، والزوج اشتعل بالبطلة، ينتهي المسلسل، وكلاهما يمارس الصمت، ويندب حظه بالسّر.

أُغير القناة، فأتفرج على نشرة أخبار، أكذب وأرخص أنواع الدراما التلفزيونية. شاشة مزيّن طرفها بعلامة ''خبر عاجل'' التي ما عادت تثير ذعرنا، ومذيعة رزينة، تقرأ ما أمامها من غير أن تفهم. ولو كانت تفهم حقًا ما تقول، لدفنت نفسها من العار، ولخجلت حتى من خط الكحل في عينيها. أصمت، وأراقب شريط الأنباء الذي يمضي دائمًا، بلا توقف، كجنازة لا تنتهي. عناوين الأخبار تتوالى، مليئة بخساراتنا، وممتلئة بانتصارات الآخرين. ولا صورة أبلغ للهزيمة، من رجلٍ عربي، يتفرج على نشرة المساء، قبل أن يخلد إلى النوم، الشيء الوحيد الذي يتقنه بجدارة.

تغلق التلفاز، وتلمح انعكاسك على الشاشة المنطفئة. لقد تغير وجهك قليلًا. لقد بدّلوك، وبعثروا ملامحك. كيف ستجد نفسك الآن، يا ابن القرن الحادي والعشرين؟

ملل.

تخرج من المنزل، على سبيل الهروب. شمس يوليو، أقسمت ألا تتركنا، ولو كنا في آخر العام. حتى ديسمبر، صار يجيء يتيم الشتاء.

أصبح التجوّل في السيارة، أسلم، ألطف، وأكثر بشرية من المشي على الأقدام. أن تكون داخل فقاعتك المعدنية، بعيدًا عن الكل، على سبيل الانفرادية، والمحافظة على الذات. ما إن تنطلق، حتى يبتلعك الزّحام. مرة أخرى، أنت متورط بالبشر. كل ساعة في اليوم، ساعة ذروة. صبرنا صار أطول، من شارع الملك فهد بن عبد العزيز. وساعات يومنا باتت تضيع، كأموال الدولة. ووعودنا بالوصول في الموعد، صارت متكسرة، كأديم شوارعنا. أحترم المواعيد، ولا تحترمني. متأخر دائمًا، كالبداياتِ. ومندفع دومًا، كالنهاياتِ. آه، لقد (سفْلَتوا) عقولنا، حتى يتمكنوا من المرور.

أصل إلى المقهى، وأجلس مع كتاب، كغريب يجلس مع صديق. تقرأ عن معدل ازدياد السكان، وخطر نضوب الموارد، وتشعر بأنك زائد، حشرة، فوق الحاجة، بكتيريا يجب التخلص منها. تُفكّر: ولِمَ أُلام، والحياة ليست اختياري؟ أتوقف عن القراءة بعد ساعات. أعود إلى الواقع، وأفتش عن الدهشة بين الناس. لا شيء هناك. الموضة، جعلتهم متشابهين. صامتين، كلٌ مشغولٌ بهاتفه. لقد فقدنا حاسة اللمس مع البشر، وبدأنا نمارسها مع الأجهزة.

أُنزل رأسي وأتأمل البلاط، خجلًا وحزنًا. أفتش نفسي، ولا جرح هناك، لأبرر به هذا الكم الهائل من الألم. الحياة بطيئة، والأيام سريعة. لا المجيء للدنيا كان خيارنا، ولا الرحيل عنها طرأ علينا. تفاقم عدد الميتات المفاجئة. صرنا نخرج من الحياة فجأة، نُطرد، دون استئذان. تمامًا، كما دخلناها. تلتفت حولك، ولا مخرج هناك. العالم محيط بك من كل جانب. فأنت محاصر دائمًا.

وحدي، أُنازل العالم. أنا الواحد، وهو الكثير. أُفسّر، ولا معنى هناك. أُمنطق، بلا جدوى. أنسحِب، ألُفُّ المفتاح على نفسي مرتين. خاسرًا، ألوذُ بنفسي. أكتب هزائمي، وأحسّ بلذة الانتصار.

نسيرُ ولا ذكرىٰ لنا، كما قال أحد الشعراء. نحن الذين نكتب الذكريات علىٰ الجدران، لأننا ندرك جيدًا، أننا في نهاية المطاف، لن نكون أكثر من ذلك. صرنا كالذي يمضي، ويخاف أن يصل. كالذي يبحث، ويخشىٰ أن يجد. ويطمئنني في آخر اليوم، أن الأرض التي تدور منذ الأزل، ستُصاب بالدوار عمّا قريب، وتهوي أخيرًا، في فوهة العدم. أزفر، فأرفع رأسي، وأتأمل السماوات. أذوب في زرقة القبة المقدسة. أستغيث، أستجير، أبتهل، وأصلي في داخلي؛ للعالمِ، للبشر، لي.

أُمعن النظر في الأفق. وأفكر، لو وقف الواحد منا في الفضاء، ورأىٰ الأرض من بعيد، مرميّة بين الشّموس والنّجوم. وأمعن الإنصات لهذا الكوكب الأزرق، ما الذي سيسمعه؟ لا شيء. لا صوت للأرض مطلقًا، وسط هذا الكون الهائل. ولكن ما الذي يحدث علىٰ هذا الكوكب حقًا؟ صراخ. صراخ بشري أبدي.

أُنزل رأسي، ألوذُ بالصمت، حدادًا علىٰ الوجود بأكمله. ثم أعود إلىٰ العالمِ، مرة أخرىٰ.

آه.. أي ملل.

الملل هو فعلُ وجود محض، بطيء، متتابع، أكسل من الوقت، وأسرع من الانتظار. حالة بشرية بامتياز. هو الإحساس، بشسوع فراغ الزمن. لحظة اكتفاء، من كل شيء. مواجهة، مع خواء المعنى. تحديقٌ في العالم، بنظرةٍ قديمة.

معاينة الملل، تتطلّب معاينة الحياة. فحص كل شيء، من أتفه الأشياء المحيطة، إلى أعظمها، وإخضاعها جميعًا للاختبار. تشخيص الملل يقتضي التفتيش بأيامنا الضائعة، في محاولة للقبض على معنى، وسط كل العبث الذي يتخللها. ولأن الأيام المهدورة، تكادُ تساوي أعمارنا، صارت حياتنا الطويلة، لحظة ملل فائقة، تكاد لا تنتهي.

إنه الجمعة، أكسل الأيام. تصدح في فضائه المآذن، بخطبٍ لا تليقُ بالمآذن. يدعو لنا الإمام نيابةً عنا، ونحن نردد من ورائه: آمين. يدعو لأصدقاء اليوم، وعلى أعداء اليوم، ودائمًا لولي الأمر، ونحن نردد بخشوع من ورائه: آمين.

أشدّ فراغًا من نهارِ إجازة. وأكثر احتشادًا من صلاةِ جُمعة. أهربُ من التفكير في العمل، في البيت، في الأمور التي تستلزم تفكيرًا منتظمًا، منطقيًا، وأستسلم لأفكاري العشوائية. أترك زورقي لنهر الفكر الطبيعي، أُسلّم عقلي لأحلام اليقظة، وأُشتّت فكري بين حشود القضايا العفوية، بلا وعي. وفي هذه الفوضى الفكرية، أجد الطمأنينة المنشودة. السَّكينة، التي هي مطلب كل حي. أجد نفسي حقيقيًا، بشريًا، أكثر مما أجدها بالتفكير المنظّم، المرصّف بالمناهج. أنا خللٌ يقطنُ التشوّش. أنا ابن الفوضى.

ولكن، أليس الإنسان كذلك؟ وإلا لم يمارس الاسترسال الذهني، في وقت فراغه، كمحطة راحة؟ لم يجد المرء متعته في هيولية الأفكار، واختلاط بعضها ببعض؟ أليس في ذلك قولٌ، يشير إلى أن النِّظام، بشكلٍ أو بآخر، يسلبُ شيئًا مقدساً من إنسانية المرء؟

هذا الشكل الجديد للعالم، العقلاني، الصّناعي، التكنولوجي، هو عصر الآلة. هو الوقت الذي سيبّعث فيه الإنسان الوعي في المكائن. ولأن المرء عديم المسؤولية، فهو لا يريد أن يكون مسؤولًا، حتى عن سعادته. فهو نفسه، لا يثق بنفسه. وبالتالي يأمل الخير من هذا الشيء الذي ابتدعه، ليصبح عبدًا له، ويجلب له الخلاص، بينما يجلس هو على العرش، فوق ركام الأرض ومخلوقاتها.

سيطوّرها، وسيبثُ فيها كل ما يملك، حتىٰ تجيء اللحظة المحرجة، في نهاية الأمر، وتتفوق عليه. إنه عالمٌ بلا روح. عالمٌ رماديّ، مليء بالشاشات والميكروفونات. حينها، يمكن لهذه الآلات، التي ستنظر لا شك للإنسان بنظرة دونية، أن تراه زائدًا علىٰ الأرض. وببساطة، يمكن الاستغناء عنه.

ذلك لأن الآلة، مبدعها الإنسان، وبالتالي سيزرع بها نفسه. سيصنع صورة مشابهٍ له: كائن جاحد طامع حيواني وأناني. فأي خيرٍ نأمل، من شيء صنعه الإنسان؟

تصرخ ساعة المنبه، كثكلىٰ. ينبض رأسي، كقلب. أنظر لساعتي، وأعلم أني قد تأخرتُ علىٰ سباقي اليومي. أنا أقطنُ التأخّر. أسكنُ اللحظة الحاضرة، كحلم الأزمنة الماضية، وذاكرة الأزمنة الآتية.

خرجُ من منزلي، لأبحث عن بيتي. عن ذاك المكان الذي خرجت منه للعالم، وكطفلٍ سكنتُ التيه، ونسيت طريق العودة. المرء يكبرُ سريعًا عندما يعيشُ بعيدًا عن

وطنه خمسة وعشرين عامًا متمرّغاً في هذه الغربة. الطفل قد كبر، وأصبح رجلًا يقطن في البحثِ. رجلٌ يخشى أن يعتاد الرحيل، وينسى المكان الذي جاء منه.

أضواء الزينة، تملأ الشوارع، احتفاءً بالوطن. وليس من شأن كافة أضواء العالم، أن تنير كل هذا الظلام. زينة تبعث على الكآبة، والإحساس بالغربة. لقد كانت الغربة هي الأساس. خلقنا الوطن، لنجد شيئًا نتشبّث به. جميع الأماكن، منفى. ولم يأتِ مفهوم الوطن، إلا كرد فعل، لكل هذه الوحشة الهائلة التي تسكننا.

أمرّ بجانب المقبرة، التي دفنتُ فيها والدي، ذات أصيلٍ جهنمي النّفس، في الصيف الماضي. أتذكره، وأقول بنفس نبرة الصبي الذي ذهب والده بنزهة: لماذا لم تأخذني معك يا أبي؟

وجه الغريب، ملاذي. يبتسم لي وهو يعبر، يكاد أن يعرفني من عيني، أكثر مني. يلقي تحية السلام، لأن الغريب لا يملك للغريب، إلا السلام.

أتجول في شوارع، تحملُ أسماء موتىٰ. حيٌّ يطوفُ في أرجاء رُفات، أو جثث تحولت لطرقات. يحمل الميّت بيوتًا في أرجائه، وسيارات، وأناسًا كثر. هذه المدينة مكونة من ذكرىٰ راحلين. هذه المدينة، مقبرة.

يغادرنا الشتاء، بصحبة أبنائه، الغيم والأكسجين والفرح. أتاه نذير الرحيل، بغير أوانه، كموت الطيبين. يختلس الربيع نظرة علىٰ أرضنا، قبل اشتعال الصيف المستبد، كحاكم عربي.

أذهبُ، حيث يذهب كل الناس. طوعًا، لا اختيارًا. لم يتبقّ مكان، لم يُلوّث بعد بالحشود. كل هؤلاء، بانتظار شيءٍ ما. جميعهم ينتظرون، وبعضهم لا يدري ما الذي ينتظره. توقٌ للهروب، للتخلص مما هم فيه متورّطون؛ أعدائهم، أصدقائهم، حياتهم، أو ربما أنفسهم.

صاروا يدفعون أكثر، ليأكلوا أقل. يريدون أن يتحلوا بجمال الجائع، دون أن يجوعوا. لقد فهموا أخيرًا، أن أجملنا هو الساغِب، ولكن بطريقة عوجاء، تشبههم.

نتبنى الأحلام، لنستمر. نخوضُ الحُّب، للنجاة. نصعد الدرجات، رغم تعثراتنا الدموية. نبني حجرًا، وسط انهيار الجدران. نسكن البيوت، لأن الأجداد الذين نحملهم في دمنا، قد تعبوا من التّرحال.

أتركهم، وأمضي. أتجوّل مع نفسي، أكثر وحدة من عمود إنارة، وأكثر تيهًا من كلب. في داخلي رصيف مكسور، أجلس عليه وحدي. تتوقف قطة بجانبي، خرجت لتوها من أكوام القمامة. تموء لي تعبًا، فأموء لها يأسًا. تفهمني مباشرة، لأن المتعبين يفهمون بعضهم جيدًا. تغض البصر ثم تمضي. وأتابع أنا وحدي.

أمضي في سبيلي، لا أريد أن أكلّم أحدًا. فكل حديث، ورطة. أن تخرج من عالمك الباطني، لضياع العالمِ الخارجي؛ أن تُطلق صوتًا في الفضاء، قد تزعج فيه شخصًا. أن تُعبّر عن رأيٍ ناقص، قد تظلم به آخرين. أن تتحمّل مشقة الكلام، وتدخل في أرض اللغة. أن تتمرّغ في الأبجدية. أن تبني جُملًا في لحظات. أن تفكر في احتمالات تلاصق الأحرف اللامتناهي. أن تتسوّل المعنى كالشّحاذ، من ربّ اللغة. أي مشقة، ولمِ كل هذا؟ ألمِ يكن الصمت أسهل، أرقى، وأبلغ؟ لا، ليس '' كل ما أراه ينطقني ''، فكل شيء من حولي أنا، يُخرسني.

نحن هنا الآن، وانتهى الأمر. ما العمل الآن؟ لقد حُكم علينا بحياةٍ كاملة نعيشها. أنستسلم؟ أنجلس، وننتظر الموت؟ رغم أن لا مقاعد في هذا العالم، إلا أن الجلوس ليس حلًا. إياك أن تقعد، إياك أن تستسلم. أَنسكُن، ونجعل هذه المجنونة التي تدعى الحياة، تأخذ مجراها على ما تشتهي؟ أقل ما على المرء أن يرتقي به، هو أن يُجن. لنواكب جنون الحياة بجنوننا. لنُشارِكها الخبل، ونتقاسمه معها. لتعلم أننا هنا، معها، في الورطة ذاتها، في مأزق الوجود. هذه الرتابة تفتأ بنا. تحولنا لفتاتٍ حقير تكنسه الرياح كما تشاء. الغبار هو ما نتن من أرواحنا. كل يوم، يكنسون ما فسد منا. وسيأتي يوم لا غبار فيه ليُكنس. سيأتي يوم نكون قد رحلنا فيه بعيدًا، مع الريح، إلى حيث لا ندري. حينها، نكون قد ضعنا من أنفسنا، إلى الأبد.

أزور البحر، حيث تنتهي الأرض. لا أحد إلا أنا والفضاء. تركبني رغبةٌ عارمة بالعواء: يا الله، أي رتابة هو هذا العالم! متى ينتهي كل هذا الضجيج؟ متى تنكسر الأشياء، ونتخلص من براثن اللغة؟ كيف ننجو من مومياء التاريخ، وكيف أُستثنى من مصير الإنسان القديم؟ تحلى أحدهم بالصبر، فصار جبلًا. غاص آخرٌ في مأزق باطنه، فصار كهفًا. تورط ثالثٌ بالحشد الذي يسكنه، فصار غابة. وليس في وسعي يا الله أن أكون جبلًا أو كهفًا أو غابة. ليس في وسعي أن أكون إنسانًا حتى.

يرحل الصدىٰ، في أرجاء الصمت المطبق. أنظر للبحر من جديد، وأفهم أخيرًا، أن للحياة ثغرًا هائلًا، لم يصمت لحظة؛ شفته العليا سماء، وشفته السفلىٰ بحر. وما كل هذا الزبد الكثير، إلا بصاقها في وجوهنا.

يا للرتابة. أيها الناس؛ أهذه هي الحياة التي بها نتشبث؟ ليس هناك ما يدعو للصمود. لننظر إلىٰ أنفسنا جيدًا. ما الذي نفعله هنا؟ وكيف السبيل للتخلص من كل هذا الضجيج؟ كل حقيقة، صارت زيفًا. لا شيء حقيقيّ بما يكفي، للتّشبث به. لا شيء يُغري بالنجاة. لا شيء يدعو للبقاء.

آه ما أعندنا، وأجملنا! إننا ننجو كل يوم، بأعجوبة. بإصرارٍ علىٰ الحياة، رغم كل ما في الحياة.

إني أعيش الآن، وكأن مصيري قد تقرّر. لا أملك أمري بيدي. لِرَيبدو لي، أن لا مزيد هناك، من أي شيء؟ وكأني اختبرت كل المشاعر، ولا هناءات توجد، لم أستشعرها

بعد. لا شيء هناك بعد لنقوله، فقد قيل كل شيء. لقد فعلت كل شيء، ولا أثر هناك، لأي جديد. إنه التكرار. إنه الغبار. إنه الملل.

إنه لأمرٌ يبعث على القلق. إذ لا شيء يثير فيّ الرغبة في الحياة، إلا الفضول. إلتماس ما قد يروّع الروح بجماله أو بشاعته. والآن، إذ لم يتبقَّ شيءٌ كهذا هناك، سأبصق على مستنقع الحياةِ وأمضي، أبحثُ عن مكانٍ أشدّ غوايةً ورعبًا. مكانٌ، من شأنه أن يوقظ فيّ المستعّصي عن الكشف. مكانٌ لا غبار فيه ولا ملل.

لستُ يقظًا. لستُ نائمًا. في تلك المنطقة المذبذبة، الواقعة بين اليقظة والرّقاد، أقبعُ الآن. أدرك ضياعي جيدًا. ثقلٌ رهيبٌ يتلبّسني. وساعة المنبّه تصيحُ كعاهرة، مشيرة إلى السادسة. عقربا الساعة منتصبان كخازوق. كرمح، يخزّ رأسي.

بثقلٍ أحرك عينيَ. كتابوتين، أفتحهما. رأسي فارغ. لا حلمَ هناك لينقذني، ولا كابوس ليبتلعني.

يقول لي غسان: '' لك شيء في هذا العالم، فقم ''. ولكني لا أريد أي شيء من هذا العالم. كل ما يلزمني، هو أن أمارس عدم وجودي هذا. أن أغوص بالعدم، حتى أصل إلى القاع الذي جئت منه. آه، من انتشلني من هناك؟

أستيقظ. أجلس على طرف السرير. وتعدو في رأسي ومضات حلم، هاربة من سطوة الصحو. ليست اليقظة، إلا سفاحة المنام. جعلت من الصباح، مقبرةً للأحلام. كم رجلٍ في هذا البلد، قد سُلب حلمه للتو؟

يومٌ مُسئِم، طويل، لاغب بانتظارك. أيذهب المرء للجحيم بقدميه؟ ولكن عليك أن تفيق، وترمي بنفسك من الهاوية، وتخرّ في قعر العالم. هذه هي سُنة العيش. ولم يعد هذا كافيًا. فيتحتم عليك أن تفعلها بالابتسام كذلك. ابتسم! هكذا ينتهكونك بوقاحة. يسرقون نفسك منك، ويمثلونها كما يروق لهم، إذا اتفق أن رأوك عرضةً في الشارع.

وأمتثل لسُنّة العيش، ورغم ذلك، لا أعيش. أمارس يومي بمكابدة، كطرقاتٍ يائسة على باب الحياة، ولا من مجيب. أحتشرُ في جمهرة البشر، فأضيعُ عن نفسي. أبحثُ عنها، أنادي: يا أنا، أين أنتَ؟ ولا أثر.

أن تخرج من المنزل، أو من حجرتك، فأنت تتحمل عبء أن تكون ظاهريًا. تُدهس من ثقل النظرات. تُنتهك بالروائح الدنيئة. تخضع تحت السُّلطة اللامرئية. تقترف حضورًا. تفتح جرح الوجه، الذي يدعونه الفم، ويسيل من باطنك نزيف كلام.

إن العالم عَدُوٌ، والعيش عَدُوٌ، والحياة مرض. اسكن باطنك، ولا تخرج. فالحرب في الخارج، ولا سلاح لديك.

أجلسُ في السيارة، متحجرًا، والطريق يجري بي. تتسابق الطرقات، وأنا جالسٌ، شاخصٌ في الأفق، والأفق شاخصٌ فيّ. نتبادل النظرات. هو ينظر متوعدًا، وأنا أنظر بلامبالاة، كمن كبُر على خدع المهرج الرديئة.

على يمين الشارع أشجار، وعلى يساره عواميد إنارة. وكأن الإنسان أراد أن يجاري الله في خلقه. شجرة وعمود، يواجهان أحدهما الآخر في تحدٍ. ولنا أن نرى في هذه المناظرة، مدى إخفاقنا، وقُبح ذوقنا.

دوريات الشرطة تغمر الشوارع، فقط لتذكرنا بأننا من غيرهم، وحوش مسعورة. لا تستطيع أن تعيش بسلام، إلا تحت ظلّ سفلة. تذكرنا بأننا فُطرنا، على الذبح والسرقة والدوس، وعلى الرقابة أن تكون موجودة، لنعيش بمأمن، من بعضنا بعض.

يمضي الناس. صامتين، تجرّهم أمانيهم، على الطريق الطويل. لماذا يسير الإنسان؟ أهناك قوة تدفعه، غير الوصول؟ ولكن لم يمشي، من لا يريد الوصول؟ لم يتابع المرء السير، إن لم يكن هناك طرفٌ آخر يسعى إليه؟

وجوه جامدة، تعكس احمرار إشارة المرور، بلا أي تعبير. وجوه متعبة لغرباء، أراهم ببشاشة النظرة الأولى، وبأسى المرة الأخيرة. كلٌ يمارس تصوف القيادة. أن تستوحد داخل السيارة الموصدة، وتمارس عزلتك.

حشدٌ متفرقٌ؛ ما بين مُتعبٍ، من كونه لم يفعل شيئًا. وفارغٍ، بعد فعل كل شيء. نظرات متّقدة، تُنقّبُ عن اللذة، في أي شيء. مسعورة في التفتيش عن ملهاة. مذعورة من استشعار الملل.

وأتابع خوض الحياة، وكأنها ليست حياة على الإطلاق. عالم صاخب، مزعج، يحاول أن يخلق معنى من عبثه، إلا أنه لا معنى هناك. نبحث، نخلق، نشيّد، نهدم، نرمم، نسخط ونضيق، فتتفتح الرؤية. وكلما تفتحت الرؤية، اتّسع الضياع.

يهبط اللّيل، امتدادًا للظلام في الداخل. البدر المتّخم يأخذ قيلولته بالسماء، بعد ابتلاعه للنجوم. الشوارع سديحة، كسلى، تحت أضواء عواميد الإنارة المنكسرة. وأنا قطارٌ طموح، ممتلئٌ بالوقود، ولا سكة حديد في هذه المدينة.

الكويت ضيقة عندما نهرب، شاسعة عندما نتوه. أنظر بكآبةٍ إلى الشوارع، التي لا تعرف إلا السيارات والقطط، وكأنني أفهم سبب وحشتها. وحيدٌ، لا أجد في سري من أتمنى لهُ الخير. وحيدٌ من فكرة، إذ لا فكرة لدي. وحيدٌ من شعور؛ لا حزن هناك كالمعتاد، ولا فرح، رغم أني اعتدتُ غياب الفرح. وحيدٌ من ذاكرة، من حلم، من يأس. أودّ أن أشُمّ بشرًا، وأسمع هتافًا. وحيدٌ من القطرات، تحت المطر. وحيدٌ وحدة إسرافيل، بعد نفخة الصور. في رأسي بومٌ كثير، وأشلاء طفلٍ كنتُه، وأطلال رجلٍ حلمت أن أكونه. وحيدٌ حتى من نفسي، التي لا أدري أين نزحت، وتركتني.

طافحٌ في دمي حدّ الغرق. مصلوبٌ على جدار ظهري. مصابٌ بداء وجودي. مطعونٌ بالخيبة. ومدهوسٌ تحت مطرقة الحقيقة. أيّ ثقلٌ رهيب يتطلبه الأمر لكي أكون؟

في داخلي مقر، دَرك، لم يذكره القرآن. أنا النار الثامنة. إنني التجلّي الأصدق، من تجليات الخراب. بأعضائي وسنواتي وملليّ، صرتُ زائغًا، في جغرافيا الضّياع. يا الله، لم أُخلق لوحدة القمم، ولا لازدحام القيعان. فلأيّ شيءٍ جئت؟

الملل هو إعلان أمام الملأ، بأن الوجود بحد ذاته، لا يكفي. وهو أمر مألوف عند كائنٍ قد جاء من العدم، الذي لا حدود له، لأنه غير موجود، وانتقل فجأة إلى الوجود، الذي يتطلب حدودًا لكي يوجد.

وعلى خلافه، يأتي القلق، الذي هو فعلُ عدم. الملل إذًا هو تنفّس الديمومة، بينما القلق هو تنفّس الفناء. نستطيع القول إذًا، أن الخلود، هو أشد حالات الإنسان مللًا. بينما الموت، هو أشد حالات الإنسان قلقاً.

حتىٰ الكتابة، صارت مبتذلة، في أزمنة الملل. باتت كل الكلمات، قديمة في فمي. لها مذاق الغبار، ورائحة الموت. اللغة إرث ثقيل، لعنة استعسار في التعبير. إن الصمتَ صفة إلهية. بينما الكلام، صفة بشريّة.

ما عادت اللغة تحتمل صياغة جواب. لغتنا غير صالحة، إلا لطرح سؤال. لغة الرب وحدها قادرة، علىٰ خلق جواب.

الأخرس، هو الحر. وحده انتصر علىٰ اللغة، وهرب من مأزق الكلام. غير مُعاقب بحديث. لا يخوض تبريرًا ولا كذبًا. فيه من الألوهية ما جعله يلزم الصمت، ويزهد في خلق الضجيج. إنه الشاهد الوحيد الذي لم يفرغ غضبه من العالم بالشكوىٰ والشتيمة، وهذا ما سيجعل وقوفه طويلًا يوم القيامة، عندما يستعيد لسانه، وينشد آلامه العميقة علىٰ مسامع الله. آه أي خطبة مؤثرة ستفيضُ منه ساعتها، وقد رددها وحفظها في قلبه حياةً بأكملها.

الأطرش أنظفنا. غير متّسخ بغبار كلام. لا يؤرقه صوت. أقوىٰ من إغواء الموسيقىٰ، وأضعف من ألا يستسلم لنومٍ في قلب الضجيج. سرعان ما يلزم الصمت بعد معاينته مدة كافية، تكشف له لاجدوىٰ الأصوات، واهتراء الكلمات.

وها أنتَ يا أنا، وحيدٌ مجددًا، تتلذذ بشهوات فراغك. ترسلُ نظرةً من النافذة لتسافر مع جِياد الريح، الهائمة في لانهائية الفضاء. أهذا أقصى اجتهادك؟ أهذا كل شيء؟ تنتظر شيئًا لا تعرفه، وتمارس الملل، وكأنك محكومٌ بحساب زمن الأبديّة؟ أتجلس يا أنا، وتترك العالم يدور بك ضاحكًا؟ قم. افزع من سكونك، وانفض عنك غبار العدم. تَبَنَّ نيّة الريح، تلبّس شكل الغياب، والحق بالحياة الهاربة. امتطِ ظهر الرّحيل، وارم بنفسك من النافذة. لا تنظر للقاع وقل: لستُ مستعدًا للموت بعد. وارفع رأسك للسماء. حلِّق. افرد جناحيك. ودع شهوة البداياتِ تأخذك بعيدًا، على مرمى من الأقاصي، وتجاوزها. فالحياةُ لا تكفي، والعمر أطول مما ينبغي. ارحل. إياك أن تحن. إياك أن ترجع. امسح أثرك من التراب، حتى لا يجدوك. لا تقترف التفاتة. إن العودة خطيئة، والخطايا تحزن الآلهة.

إنها ساعة الأصيل. غبارٌ منثورٌ في الفضاء، حرٌ يُصْلِي الرؤوس، وازدحامٌ في الشوارع يخنق. إنها حالة غثيان جماعية. شمسٌ تبخّر ماء الرأس، وتشوي لحم الوجه. أسفلتٌ يقلي الخطوات والعجلات. تلهث السيارات دخانًا أسود، نستنشقه مع أكسجينٍ نستلّهُ، من ذاكرة الهواء. إنها ديمومة احتراق. هذا الكوكب مطعونٌ بسيخٍ هائل، يُدوّر

أبدًا على اللظى. هذا الشارع، نهر من أنهار جهنم. إبليسهُ أصفر، يتدفّق وهجًا. زبانيته ترابٌ متدفّق في الرحاب، هرب من مرقده، ليبحث عن مأوى من حمم الأسفلت. ونحن المذنبين، بلا ذنب. نحترق، ولا نعرف السبب. وأبدًا، لن نكشف الجواب.

لا فُسحة في هذه الأرجاء، لتأوينا من هذا السعير. ولكن أين نفرّ، من جحيم صنائعنا؟ إن الأرض تأفل، تحت وطء هذا الاحتباس الحراري. هذا المصير الفظيع، الذي قدنا كوكبنا إليه. إنه يتضخّم، حتى صرنا نعيش، في الفرن الواحد والعشرين. إنها النار التي تغذّت على حماقاتنا. إنها النهاية، التي تعبنا لأجلها. نهاية طويلة، لا ترغب في الانقضاء.

ويتوالى الشواء، تحت وطأة اليوم الاعتيادي. ألوذ بالفرار لجحر الأسمنت المكيّف، بعد طول احتراق. أصل للبيت أخيرًا، بنفسٍ ذائبة، وقلبٍ لاهث. وينقضي النهار، كخسارة جديدة، من رصيد العمر المتواري.

يهبط الغسق، فيتفشى الملل. وفي الملل يشيخ المكان، وينتحر الزمن. يتشابه البشر، وتصمت كل الأشياء، عدا الزفرات.

الملل هو الطريق للخيبة، والخيبة هي عتبة الموت، والموت غاية الحياة.

وأخوض ما تبقىٰ من أشلاء يومي، كمحاولة للقبض علىٰ هذه الحياة. أخالط الناس، فأختلط بنفسي. في الازدحام، لا أرىٰ أحدًا. أجلسُ بينهم، كدخيلٍ علىٰ دُخلاء. ننتمي للانتماء، ونتشابه بالوحشة. إنه وطنٌ مطعونٌ بالخيبة. كشيخٍ، نسيه أبناؤه العاقون.

مجلس الأصدقاء، بات يتيمًا من جلاسه. لقد كبرنا، وعلىٰ كلٍ منا أن يمارس الآن عقوبة الواجب، وخوض الالتزام، ورحلة تحقيق السعادة.

تلك الرحلة التي زهدتُ في خوضها، وجلست علىٰ حجرٍ بجانب الطريق، أتأمل من يعدو خلف ما يظنه الخلاص. من منا أكثر بؤسًا، من يهرولِ لاهثًا في الطريق، أم الجالس في مكانه ويكاد أن يقيء الملل؟

علاقتي بالسعادة مرتبطة بتذكرها، وانتظارها. وإن قابلتها يومًا وجهًا لوجه، لن أعرفها. فما فائدة استقصائها، إن لم أكن متأكدًا من شكلها؟

ويعبر من أمامي صديقٌ لاهث، مناديًا: '' هيه أنت! قُم! السعادة لا تُنتظر. السعادة تُخلق.'' ويتابع عدوه، ناهجًا مطمئنًا لِما آل إليه قلبه. غير أنها طمأنينة من وجد بؤساً جديداً، يتسلى به، ويتغذى عليه، كلما ضاقت به السُّبل. إنها سعادة الانشغال عن السعادة. أيقنتُ ساعتها، أن كلينا كان بائسًا بطريقته.

البؤس يعطي هوية واضحة للمرء. السعداء متشابهون، ولكن البائسين مميزون بعضهم عن بعض. فمن أنا حقًا، وسط كل هذه الهويات المتشابكة؟ لستُ جاهزًا بعد، للإقدام على جوابٍ كهذا.

ولكني أنا المرء الذي اختاره الله لكي أكونه، وأخوض من خلاله الحياة. فبغضّ النظر عن الأسماء، إني أعرف نفسي جيدًا. لي أصدقاء أحبهم، وأحلام كثيرة، وذكريات سعيدة. أليست هذه الأشياء تؤكد على أن لي حياة تستحق أن تُعاش؟ إنه لأمر رائع أن تعيش، ولكن الأروع منه دائمًا أن تنسحب، وتهرب من كل ذئاب الوجود المستعرة، وتترك حياةً خفيفة من خلفك، كوهج الصباح في ذاكرة الليل.

وما جدوى الإجابة، إن لم نعرف ما إذا كانت ادعاءً، أم حقيقة؟ بل ما جدوى الحقيقة بحد ذاتها؟ ما جدوى شيءٍ غير موجود؟ لا تفصلنا عن الحقيقة إلا منزلةٌ واحدة، هي الوهم. أما المعرفة، فلن تقودنا إلا لحقيقة واحدة، وهي أن لا حقيقة هناك.

وتنتشلُ ساعة الحائط الفكرة مني، بإعلانها المُمل: إنه منتصف الليل. وبلحظات أَنفى من حضن اليوم، وأقذف في غياهب الغد. وينتهي يوم الناس، ولا ينتهي يومي. أبقى ساهرًا، لأُكمل الحكاية. وأفكر بكل الذي تبقى، ولم أحكه بعد. وأسائل نفسي: ما جدوى هذه الكتابة؟ هل تُكتب الحياة؟ هل بمقدورنا أن نكتب الملل؟

وكأني لا أريد إلا أن أقول شيئًا واحدًا. وكأن حكايتي كلها، تتلخص في هذا النبأ؛ صدري غارٌ والحزنُ وحيي، أُبشّر بصراطٍ واحدٍ للحقيقة. صراطٍ هائل الاتساع، يكفي البشريّة بأكملها. صراط، لا يقود إلا للعدم.

عـدم

طُردنا منه، على شكل ولادة

»كائن يلهو في الجحيم«

إنه الأذان، نداءُ أهل السماء، لأهل الأرض. صوتٌ مرّوعٌ فاتنٌ يناجي. نداءٌ يذكّر، فيُرعب ويُطمئن.

إنها الرّابعة فجرًا. السماء غارقة في أعماقٍ تركوازية. النّور على وشك البزوغ، والعصافير تملأ الفضاء غناءً وتمجيدًا للخالق، في كونشيرتو مقدّس. وكأنهم يرتّلون جزءًا جديدًا من القرآن، نزل على من قد يرتلونه بلحنٍ أقدس، وقلبٍ أطهر.

بُعث فيّ فجأة، أملٌ عظيمٌ في الحياة. غريب، لا رجاء فيه. ليس أملًا يرتجي شيئًا، ولكنه أملٌ مكتفٍ بحد ذاته. تمامًا، كأمل المرء ساعة الاحتضار. هذا التصالح الذي يملؤُني تجاه الحياة، غيرُ نابعٍ من تسوية الخِلاف، ورغبة في فضّ النزاع، بل هو أقرب لتصالح المودّعَيْن؛ اللذَين لا يريان أي طائل من استمرار الصراع، إذ كلٌ آيلٌ لرحيله. كرجلين محترمين ناضجين، نتصافح، دون أن نُظهر حقدنا الدفين الشخصي، لبعضنا بعض.

آه ما أجمل كل هذا! أبغض الفجر لأنه يغويني، ويروّعني بجمال الحياة. أبغضه لأني ضعيفٌ أمامه. لا أصدّه، وهو يستلّ من داخلي كل السأم الذي يسكنني. يبثّ بباطني شعورًا سماويًا، يبعثُ روحي جديدةً كالنور. ثم يتركني للنهار، بلا حزنٍ يصونني، ولا سأمٍ يحنو عليّ. ينفضني لباقي اليومِ، هشٌ كما ملاك، قابل للانكسار من أتفه النسمات. هكذا الجمال يهزمني، ويزيد من وهْني، ويتركني عاريًا أمام جيوش العالمِ.

إلا أن كل هذا البهاء، يخنقني. فالسأم جيّد، والحزن يحصّن، والبليّة تُدعّم العزيمة والقوة. ولا طاقة لي لمواجهة العالمِ، وأنا أجردَ من أيٍ منهم.

مذ أفقتُ ساعة الفجرِ، وثمة موسيقىٰ في رأسي لا أعرفها. أبيضُ وطويلٌ هذا الصباح، كالأبدية. لِمَ أشعرُ يقينًا بأني سأموت هذا النهار، ولن أشهد ساعة الغروب، كما اعتدت، بقلبٍ يحزنه شيءٌ لا يعرفه؟ لِمَ أشعر بأن الأمر لن يحتاج إلا لساعاتٍ قليلة، قبل أن أجد نفسي وحيدًا بلا أصدقاء؟ لِمَ تعدو في رأسي كل السنين التي ظننتُ أني سأعيشها، مرتاعة، عبثًا تحاول أن تردع الموت من المجيء؟ ما كل هذه الرؤىٰ الجنائزية، وما هذه الموسيقىٰ التي ما زالت تزِنّ في رأسي؟ أهي موسيقىٰ تلك التي أسمع، أم غناء جوقة من الملائكة الخرساء؟ لِمَ هبطت جنود السماء الآن بالذات؟

إن قُبضت روحي اليوم، فأريد علىٰ الأقل، أن أُدرِك ذلك لحظتها، قبل أن يتوقف وعيي فجأة. فمن حق المرء، الذي لم يتبيّن مبرر ولادته، أن يعرف علىٰ الأقل، مسبّب وفاته. كم ميّتٍ، من أولئك الذين هلكوا ولا يدرون لماذا، يقضي الآن الأبدية في عدّ الأسباب المحتملة لموته؟ الاحتمالات لا نهائية، وبالكاد تكفي ديمومة الأبد. ولكن ما الذي يفكر فيه، ذاك الذي يعرف سبب موته؟ كيف سيقضي كل ذلك الوقت؟ أيهما أرحم علىٰ الخالد، أن يعيش بالفراغ أم بالسؤال؟ إن الخلود كيفما جاء، شكل من أشكال الجحيم. والنعيم، كل النعيم يقبع في العدم. في الانتهاء.

لم أتبيّن من قبل، مدى هشاشة الحياة، كما أفعل هذا الصباح. وفي أوقات كهذه، أشعرُ وكأنني قد تغلبت على علاقتي بالعالم. أغمض عينيّ، وأهبط لقاع كينونتي، لأتعرف عليها. لا، لستُ الصّياد، ولا الضّحية كذلك. أنا الشجرة، التي تراقب هذا المشهد بتقزز. أنا الهواء العابر، بين تحديق فوهة البندقية، وعين الضحية المذعورة. العالم ليس قضيتي، لأنه ليس عالمي، على كل حال. ليس ابني، وليست تربيته وظيفتي. ولا أطمح لتغييره كذلك. فهذه تبدو لي، مِهنة الكثيرين غيري. ولأني في النهاية، لستُ بطلًا، ولا أطمح لأن أكون واحدًا، ولا أحب ادعاء العكس، ولا أخجل من إعلان ذلك. فأنا أبعد ما يكون عن الأبطال، وعن الأشرار كذلك. لا علاقة لي أبدًا مع العالم، ولكني سأحرقه، وأعضه وأقطّعه، لو اقترب مني، أو داس على ثوبي. أما في غير ذلك، فسأدع العالم لأبناء العالم، فلستُ واحدًا منهم.

آه، إنها الموسيقى ثانية. وتبدو هذه المرة، وكأنها آتية من أقاصي الفردوس. صدىً لصوتٍ أقدسُ من أن يُسمع. ليس من شأن الأذن البشرية، المتسخة بضجيج الحياة، أن تُصغي إلى هذا الدويّ. أريدُ أذنًا صافية، كأذن الطفل، لأستنبط اللّحن. لأتعرف على النداء، وأعرف ماذا يقول.

هل سأموت اليوم فعلًا؟ أي لا غبار ولا ملل بعد الآن؟ أنكمش لمجرد التفكير في الأمر. أنزوي في أقاصي نفسي، أبعد ما يمكن عن كل شيء. أختبئ في لحم أعضائي، ويأتي الصحوُ على شكل جزّار، ويقتلعني.

مما لا يبدو منطقيًا، أن أكون وجلًا من الموت بهذا الشكل. ولكن إذا ما عاينت توجّسي هذا، وجدته غير نابعٍ من فزع، بل من فرط سعادة. كالشّحاذ الذي يجد كنزًا صدفة، فتتخبط مشاعره، ويتحول فرط بهجته، لهلعٍ مريب.

وهذا يرجع إلى أني، إذعانًا لا اختيارًا، لا أتكبر على الظروف. هشٌ كفاية، لأن أتبنى الشعور الذي يفرضه الموقف، دون رفض. أحب أن أعطي الكارثة حقها من الفزع. وللأفراح حقها من الأمل. وللخسارة حقها من الحزن. وللمفاجأة حقها من الدّهشة.

مما يجعلني أتخبط أمام الموت، بالخوف والتلهّف والسعادة، في الوقت ذاته.

لا شيء ينتهك المرء كالصباحات. إنها اللحظة التي يكون فيها الإنسان، بأقل حالاته وجودًا. لنقل أن النوم حفرة ضيقة، مظلمة، يقتبرُ بها النائم طوال الليل. والاستيقاظ هو الخروج من هذه الحفرة. فالصباح إذًا، هو الفترة التي يكون المرء فيها متعفرًا بالغبار. هذا التّعفر هو النعاس، الكسل، أو الحنين إلى العدم. المرء المستيقظ من النوم لِتوه، هو خليطٌ بين الوجود والعدم. كالموجود في مكانين في اللحظة ذاتها. يتخبط بينهما بشكلٍ منهك، ثقيل.

يكون المرء أكثر صفاءً عندما يستيقظ، لأنه يملك شوائب عدم متعلّقة به. فالعدم هو مضجعنا، والمكان الذي نستمد منه قوتنا. كرجلٍ يسعى النهار في الوجود، ثم يعود ليلًا إلى مضجعه، منهكًا، ليستريح في عدمه، حتى يسترجع قواه في الصباح، ويكون مستعدًا مرةً أخرى، لمواجهة اليقظة.

العدم هو قلعتنا المفقودة. نُفينا منها جميعنا، بشكلٍ أقسى من أن يحتمل. طُردنا منها على شكل ولادة، ومجيء؛ بأي حسٍ فكاهي، تعمل صيرورة القدر؟ ويأتي النوم على شكل نزهة، في الحديقة المقابلة لهذه القلعة. صرحٌ هائل، نعود له مكسورين كل ليلة، جاثمين أمامه، بخشوعِ النائم، نشحذ سكينةً من صخب الأرجاء. وعلى هذا، فالنوم هو وسيلة لإلقاء نظرة من بعيد على العدم. أما الموت، فهو اجتياز البوابة.

غير أن الصحو متربّص على الدوام. إن اليقظة مطرقة، يتشظى من تحتها العدم لبعثرة الصور والأبعاد. الوجود شتات، من المستعصي ردّ شمله من جديد، إلا بحنين النعاس، بعد ممارسة الصحو المهلك، حدّ الغربة.

أي مشقة هو الاستيقاظ، هذا النفي اليومي الأليم.. ومع ذلك نخوض النهار مغتبرين بعدمنا، ونمارس التثاؤب، الذي هو اتساع جرحٍ في الوجه، من وجع الحنين للعودة.

كل استيقاظ، هو نفيٌ جديد. كل صباح، هو سقوطٌ في فوهة العالم، في قعر الوجود. فأين السبيلُ إلى السماء، ولا سُلّم في الروح، يعرجُ بنا إلى العدم؟

إنه المساء. لم أمت بعد. أجلس وحدي في الحديقة. أسمع صرير صرصور الغيط الرتيب. أشرب قهوة بحليبٍ مقشود. لا أفعلُ شيئًا، وأشعرُ بامتنانٍ عظيم، لشيءٍ لا أعرفه.

بلا سعادة وبلا تعاسة وبلا شعور. هكذا أريد أن تكون حياتي. كسِدرة منزلنا العجوز، الصامتة، المتخلية عن كل شيء إلا المكان الذي تشغله، هكذا أريد أن تكون حياتي.

أريد أن أستوحد مثلها. متصوفًا وسط كل هذا المجون. غير أن العزلة، مستعصية. فإن تخلّصتُ من رفقة الناس، فكيف لي، أنا الممتلئ، أن أتخلّص من رفقة نفسي؟ في داخلي ازدحامٌ مريع. شوارع كثيرة، مثقلة بالسيارات والدخان والسباب. في داخلي أُناسٌ لا أعرفهم. وجوه مألوفة، لكني لا أذكرها. يذهبون للعمل كسالى، يعشقون يقتلون يتعبدون يحتفلون ويبكون. يعيشون حياةً بائسة، عادية، رتيبة، كحياتنا نحن. توجد حياة كاملة في داخلي. كيف سأفرغ إذًا؟ في الموت حتمًا، سأتخلص من كل ثقل.

أجلسُ وصديقي الهواء. العابر دائمًا، لا يسمع ولا يتحدّث. أجلسُ وصديقي الهواء الذي لا يعرف إلا الاصطدام بالأشياء. يعيشُ في هروبٍ أبديّ، ولا ييأس، رغم ارتطاماته الدائمة. يسافر أبدًا، من مكانٍ لآخر. خائف، لا يمل الهروب، من شيءٍ لا أعرفه. قد يكون الشيء ذاته الذي أهرب منه دومًا، ولا أعرف ما أسميه.

أجلسُ، وصديقي الهواء. أنا الواحد، وهو الكثير. كل خلاء إذًا، ازدحام. لا مهرب من حشد الأكسجين. لا سبيل للتخلص من كل هذا الملأ، إلا بالاختناق. الغرقُ إذًا، هو العزلة الحقيقية.

لماذا نريد العزلة؟ نحن لا نريدها، بل نحتاجها. نحن نحتاج إذًا، لأن نموت. لأن نكتمل، ولا نحتاج لشيءٍ بعد. هل الاكتفاء إذًا، هو الهدف؟ لا. الانتهاء. الوصول. الكمال. العدم، هو الهدف.

علينا ألا نستحي، نحن الأحياء، الموهوبين الرعشة والحرارة، من رغبتنا بالموت. فنحن نعيش في عالمٍ، هو مأساة حقيقية، ونحن نستحقها، على كل حال. فهي ليست بلاء، بل نتيجة جزيل حماقاتنا. وأفضل طريق للمغفرة، هو محو الذنوب. محو الحياة.

وعلى نقيض ذلك الهاجس، يجب أن نستحي من رغبتنا بالعيش. من يرضى بأن يحيا، تحت كل هذا الذّل؟ من يرضى بأن يسكن، في قلب المزبلة؟ الحياة عار، من واجبنا أن نسحقه.

الموت، هو الخلاص الوحيد. فالأمل، كل الأمل، يقبع في هذه الحقيقة المفزعة. فأن ندرك موتنا، هذا يهوّن من الفجيعة التي نسميها حياتنا. وكل سعينا، في أن تقودنا الحياة الزاخرة، بالصخب والألم والضحك والصراخ، أخيرًا إلى الصمت، ذلك الدويّ المقدّس، المتشعب في أرجاء العدم.

ولا أزال، أجلس وحدي في الحديقة. أفكر بالموت. والصرصور لا يتعب من الصرير الرتيب. وأمامي كوب القهوة فارغٌ الآن، كالمستقبل. وأستمر بعدم فعلي أي شيء، وأشعرُ بامتنانٍ عظيم، لشيءٍ أعرفه جيدًا، وهو وجود الموت.

لا أحلم بعمرٍ طويل، ومالٍ وفير. أريد حياةً قصيرة، عابرة، كوهج الشمعة الأخير، قبل الانطفاء. كفكرةٍ تنبثق، في رأس سريع النسيان. كحلمٍ عابرٍ، في أثير الفجر. خفيف كتحرك الظل، وصامت كسقوط الشهب. أريد حياتي أن تكون، بالسرعة التي لا تكفي، لإنهاء هذه العبارة.

ما معنى أن نكبر؟ أليس في ذلك، وإن كان خفيًا، شوقٌ للنهاية؟ إنهم يفرحون بك عندما تمشي، تتكلم. يفرحون بك كلما كبرت، دخلت المدرسة، تخرجت، تزوجت. إنهم يفرحون بك كلما اقتربت من موتك، لترحل من كل هذا العذاب. أن نكبر، يعني أن ثمة شوقًا بيولوجيًا للفناء، لا نستطيع إخفاءه.

القضية في الحقيقة، ليست في أن الموت أمرٌ جميلٌ، رغم أنه كذلك، بل في أنه مصيرٌ محتومٌ. وعلى هذا علينا أن نتصالح معه، ما استطعنا.

قد تكون أشيَع الدعوات المتداولة، تلك التي تجيء في طلب إطالة العمر. وفي الحقيقة، ليس ثمة شيءٌ جيدٌ في ذلك. فأن تكون شيخًا، يعني أن تقبع في الماضي، ولا يكون حديثك إلا عنه. لأن الحاضر، موحِش. والمستقبل، غير موجود. والحياة السابغة، مُرصّفة بالوداعات، ومتوغّلة في الفقد. من يرتجي حياةً كهذه؟ فلا الزمان زمانك، ولا الناس هم الناس. ولا أب، ولا أم هناك. أنت عالة على أبنائك، هكذا ستشعر في باطنك، وإن لم يشعر به الأبناء أنفسهم. حتى يبدو لي أنني إن أصبحتُ شيخًا، سأخجل في أن أبدي رأيي في أي شيء، فالعالم ملكٌ للشباب الآن، كما كان ملكي، حين كنت شابًا. فأين أنت من كل هذا إذًا، يا مخلفات الماضي؟

ثم ما الذي يدعو للبقاء هنا، مدةً أطول من عمرنا؟ إن الموت أجمل، وأكثر منطقية من الحياة، والدليل على ذلك، لم يعد أحد من الموتى إلى هنا. فجميعهم اتفقوا، على أن المكان هناك أجمل. قد تكون حجة مضحكة إن أصدقت القول، لكني أخذت الأمر على محمّل الجد. ثمة سحرٌ في أن يهيّلوا التراب عليك. ثمة بهاء في التلذذ بهناءات النوم الطويل. ثمة لا وعي، وصمت، وظلام. لا ضوء يجرحك، ولا صوت يفزعك. أنت وحدك، تمامًا، في رحم اللاشيء. أي بهاء!

آه، الصرصور توقف عن الغناء إذًا. ربما نام، أو مات. ونسيم المساء هدأ. كل شيء ذهب إذًا. الحليب والصرصور والهواء. لم يبقَ غيري، والموت. ألا يبدو ذاك حقيقيًا للغاية؟

هذه الأفكار، على كل حال، لن تقودني للانتحار. فالمرء لا يعرف على وجه اليقين، متى تكون اللحظة الحقيقية، التي تضحي فيها حياته، غير جديرة بأن تعاش. (أهو لا يعلم، حقًا؟) وإنما تبدو لي، أنها وسيلة لحب المصير. الانصياع لإغواء السقوط. لحظة الاصطدام. الصمت المواري. اللانهائية الموعودة. شهوة عدم التفكير. لذة التداعي، بعد خط النهاية. أريد أن أتوغل في غواية الموت. حتى أصل، في نهاية الأمر، للطمأنينة النابعة، من تصالح المرء وفنائه.

ورغم كل هذا التوق للهلاك، تكمن المعضلة الحقيقية في أني لا أملك سببًا كافيًا لتمنيه، أو الإقدام عليه. وكأني أرىٰ الجائع يقول لي: ونحن، ماذا أبقيت لنا؟ والمريض يقول: لم تترك لنا تعبيرًا أصدق لاستيائنا من وجع الحياة. لكنني جائعٌ ومريضٌ كذلك. فذاك جائعٌ يريد أن يعيش، وأنا جائعٌ يريد أن يموت. أي الحالتين أشدّ؟ هذه ليست منافسة علىٰ كلٍ، لأعمق جرح. قد لا يكون وجعي بكثافة وجعهم، ولكنه كافٍ لتمني المصير ذاته.

أمرٌ آخر: أولئك الذين يتمنون الموت، هم ذاتهم الذين يحبون الحياة، وتوقفوا عن ذلك بعد مواجهتهم للهزيمة. أما أنا فلم أحب الحياة أساسًا، ولا تهمني خياناتها، ولذلك لا أملك تجاهها رد فعل. وهذا يجعل حبي للموت محضًا. حبًا لذات الموت، في علاقة متخلصة من أي صلة ممكنة بالحياة.

ما أريده هو أن أعلن بصراحة، أني أريد الموت، بلا خجل، وبلا توجّس من أي اتهام. كرغبة محضة لغايتها، وليس كردِ فعلٍ لأي شيء.

وأنا سعيدٌ لاجتهادي، لأنني لم أتوقف لحظةً واحدة، من الاقتراب من مصيري.

الزمن هو انزلاقنا نحو العدم.

بما أنني لستُ سعيدًا، فسعادتي إذًا غير موجودة، أي أنها تقبعُ في العدم. وكل ما يسكن العدم، يملك في ذاته إمكانية الوجود، كما كنا في طفولتنا الروحية. أما طريقة تحقيق هذه الإمكانيات، فهو الأمر المستعصي علينا في المسألة. فنحن نعجز عن الخلق، أو جلب ما في العدم للوجود. ولكننا على عكس ذلك، نملك القدرة على التدمير، أي نقل ما في الوجود إلى العدم.

وعلى سبيل التدمير؛ فبالنسبة لشخصٍ سعادته غير موجودة؛ أليس القفزُ للعدم، حيث سعادته، أي الموت، هي خطوة منطقية، وعقلانية للغاية؟

وبناءً على المكان الذي تقبع فيه السعادة، نستطيع القول بأن المرء غير السعيد في حياته، كان سعيدًا حتمًا في عدمه، والعكس صحيح.

ما الذي كنته قبل مجيئي إذًا؟ كائنًا سعيدًا. يخلع رأسه ويلعب به متى يشاء، ثم يركله بعيدًا إذا ضاق به. يرقص مبتهجًا مع قلبه، ولا يسجنه بين أعضائه، مطمئنًا بسماع ضربات احتجاجاته على جدار صدره. خفيفًا بعدم وجوده، لا يعرف معنى الثقل، ولا المعرفة ذاتها. دائم اللعب بشكل يشبه القلق. لقد كنتُ كائنًا يمرح في العدم.

لا يختلف العدم كثيرًا عن الوجود. الخلاف الوحيد، هو الوعي. أنت توجد في العدم، لكنك لا تعي ذلك. تمرح هناك ولا تشعر بذلك. إنها نشوة، نزاهة، أن تكون سعيدًا وأنت لا تعي شيئًا عن هذه السعادة. لكنها نشوة لا تُحس على كل حال، ما يجعل من قيمتها المحضة، مضاعفة.

ما الذي دفع الكائنات لزيارة الوجود؟ لقد كنا سعداء في عدمنا. مكتملين، ومكتفين. والمجيء الذي حدث، جعل منا كائنات مشوهة بوجودها. مشوشة

بمعرفتها. مضطربة ببحثها. معتلة بانتظارها. غير مكتملة، وغير مكتفية. وهذا التشوه يتمثل في قلقنا، وحنيننا، ومللنا.

ثمة أعداد هائلة من البشر تقف الآن في العدم، مشكلين صفّ انتظارٍ هائل، مترقبين دورهم للمجيء إلى هنا. ولا ينبثق ذلك من رغبتهم، بل من إرادة غامضة، كانت تقودهم. لقد كنت منهم، واستعسار الانتظار ذاك، جعلنا نغض النظر عن أولئك الذين عادوا للتو إلى العدم، محبطين مما رأوا. فلم نحتجّ بطبيعة الحال، ووقعنا في المأزق.

لكن بعضنا فطن لأولئك الموتى العائدين. تفرّسوا في وجوههم. عاينوا بطء حركتهم وانحناء ظهرهم. أدركوا أن الزيارة، على كل حال، لا تستحق كل هذا العناء. فولّوا خارجين من صفوف الانتظار، وأعرضوا عن فكرة المجيء. في الحقيقة، ثمة جمهرة من البشر قرّروا ألا يكونوا، ولقد فاتني أن أكون منهم.

أولئك الذين عادوا إلى العدم للتو، ليسوا كالذين ينتظرون دورهم للمجيء. فالفرقة الأولى يتميزون الآن بمعرفة العالم، مشوّهون بتجربة الحياة، وهذا لا يجعلهم في عدمٍ تام، بل في عدمٍ مختلف، مثقل بالمعرفة والانمساخ المستمر، يدعونه البرزخ؛ أو انتظار القيامة.

إذًا لا سبيل هناك إلى العودة للعدم المحض، البريء من أفكار الوجود.

لقد انتهكت كينونتنا إلى الأبد.

إننا نأتي على الدوام. في كل لحظة. أعدادنا باتت تتضاخم، والأرض لا تحتمل. سنحتشد، سنختنق. كل بقعة، هي حشر. إننا نرى ألف دجّالٍ في الساعة؛ يدجُل الأرض بأكملها، من خلال نشرة أخبار. كل يوم، هو يوم حساب. في حضرة العدالة الراعبة، المسماة بالضمير، تصير أنت القاضي، وأنت المُدان. تحت دويّ مطرقة المصارحة، تصبح أنت الجلاد، وأنت الضحية. أيّها الإنسان؛ في باطنك تقبع المحكمة

الأبدية. إنها حياة القيامة. أنت محشورٌ بين الخلق، متورّطٌ بالبشر.أنت كيسٌ بالٍ من اللحم والعظام. لقد فات الأوان، فأطلق صيحتك الأخيرة، واهرب مفزوعًا من الأهوال الآتية.

لا. ليست هذه القيامة، لقد فاتتنا القيامة منذ زمنٍ بعيد. أيّها السادة، هذا هو الجحيم.

ذاك الذي يأمر جيوشه بقتل الناس. هذا الرجل، أو القاتل، يجعل من الأرض مكانًا غير قابل للسكن. يصبّ الغاز في أحشاء هذا الجحيم. وبفعلته هذه، يلهي المعذَبين بلهبٍ جديد. فيتناسى الناس النار التي تحرقهم، وينشغلون باللهب الجديد، متصورين أنه سبب عذابهم.

القتل فعلٌ منافٍ للخلق. والذي يجعل الوجود بليّةً، يجعل القتل رحمةً للناس. كالأخذ بيد الطفل الضال وإرجاعه إلى بيته. القاتل يصحّح أخطاء القدر.

وعلى ذلك، فمن شأن القتيل أن يبارك قاتله؛ الذي ضحى بأُنس نفسه، ليرسل آخرَ لخلاصه.

القاتل، ككل الأنبياء، أسأنا فهمه. هو نبي لا يبشر بالنعيم، ولكن يُنقذ من الجحيم.

القتلة هم أبطالنا.

في سبيل توضيح طبيعة المرء المتشظيّة، بإمكاننا القول إن المرء، في الأساس، يتكون من اثنين. الأول هو الترابيّ، والذي يمثّل ما تبقى من العدم فينا، أو شكلنا القديم. والآخر هو المائي، الذي يمثل الجزء الحي، أو ما استحدث فينا. أما اندماج الاثنين فيشكل الطيني، الذي هو بُنيتنا الراهنة.

كان الكائن ترابيًا في الأصل. أما المائي، فهو ما طرأ على العدم، ليأتي للوجود. إن مُركب الماء هو السر الإلهي. فيه يستتر لغز الحياة، وفعلُ الخلق. له شكل سماءٍ سائلة.

والتناظرات العديدة بين طبيعة الماء والسماء، كلون البحر الملازم للأفق، يؤكد على أصلهما الواحد.

الماء إذًا، هو أداة الله لنقل من في العدم للوجود. وهذا ما نفعله نحن تمامًا، إذا أردنا أن نجتثّ وردة من عدم التراب، أو تجذير طفل في أحشاء امرأة.

في حين أن التراب، هو أداتنا لنقل من في الوجود للعدم. كدفن الكائن بالثرى، إن أردنا أن نشيعه أخيرًا من العالم.

وفي معاينة هاتين الطبيعتين المتناقضتين. فالمائي فينا، هو الذي يحب ويحلم ويضحك. هو الذي يأخذ بيدنا، كلما تعبنا، لنكمل الطريق. هو الذي يربت على أكتافنا، كلما تعثرنا بحجر. يتشكل فيزيائيًا كحرارة تجتاحنا، كلما مارسنا التقبيل أو الحلم. أما الترابي، فهو الذي يقلق ويكتئب وينعس. هو المسؤول عن زيادة الثقل بالداخل، حتى ننعدم تمامًا. يتشكل فيزيائيًا كقلق يرجّ الصدر، أو كسل يخدّر الجسد.

يتوق المائي لأن يبلغ الخلود، وسبيلهُ هو التفتّح الدائم. وغالبًا ما يتجلى ذلك في الشعور بالانتعاش، والافتخار، والنشوة. بينما يشتاق الترابي دومًا للعودة إلى العدم. وأبدًا يكابد للتقوقع بالداخل، وذلك بتعزيز شعور الخزي، والندم، والفشل.

والإنسان بينهما، مشتت، وسط توقٍ وحنين، في نزاعٍ أبديّ لا ينقضي.

وعلى كثرة جماليات الفناء، ثمة هناءة عظيمة، تتمثل في هجرك للأحياء، ومكوثك مع الموتى.

الموتى طيبون. سيتركونك نائمًا أبدًا، منتشيًا بشهوات فنائك، ولن يقترفوا إيقاظك. لن يزعجوك بكلامهم لك، أو كلامهم عنك. لا يعرفون لغة، ولا تعرفهم أي لغة. صمتوا كفاية لينسوا الكلام، فنساهم هو بدوره.

للموتى لذات، لا يعرفها الحيّ. كلذة الاكتفاء والامتلاء والانتهاء. وهي لذات باقية، ليست كالتي يملها الأحياء، بل تستلزم أبدًا كاملًا، لينعم المرء بها، قبل أن يكتفي. يظل مبتهجًا بشبقات هلاكه، إلى الأبد، دون مللٍ ولا انقطاع.

الموتى رومنسيون. لا يؤذون الدّود الذي ينخرهم، ولا يدوسون النمل الذي يملؤهم. يتّحدون بالأرض. يرجعون للطبيعة. يسمحون للعشب بأن يخضرّ على تربة وجوههم، وللبذرة أن تضع جذرها في كبدهم، وللزهرة أن تنبثق من عيونهم.

الموتى آمنون. لن يعتدوا على قبرك، رغم أنك لا تحرسه. ولا يذبحون ولا يستعبدون ولا يعذبون. الموتى عظماء. لن يزعجوك بحياتهم الطويلة التي خاضوها. لن يفتخروا ببطولاتهم، ولن يبرروا إخفاقاتهم. لقد تفوقوا على المجد والشرف والجاه والحياة، وارتقوا إلى الموت. لا شيء يعنيهم. إنهم المصطفون، خريجو الحياة. الموتى، هم مجد الله.

كلما تقزز المرء من منظر العالم، أو تلقى صدمةً منه، يغدو كالمغترب الذي تجتاحه رغبةٌ بالعودة إلى وطنه. ولهذا يصيبه الدوار، ويسقط، عائدًا للعدم، ولو لبُرهة.

الدوار هو حنيننا المفرط للوطن، عندما يتفوق على جَلَدنا العنيد في الغربة.

ثمة منافذ خفية، تربط بين العدم والوجود. أغلبها يتفتّح في الليل، فيتسرب إلينا من خلالها بعض من مادة العدم، والتي تجعل المرء يقلق في هذه الأثناء، ويتعب، ثم ينام.

وُجدت هذه المنافذ، لتَنقُّل الأحياء والأموات الجدد. ورغم نظام الكون المتماسك، إلا أن وقوع الأخطاء وارد خلال هذا العبور، فتتسرب أشياء من الطرفين، بشكل غير مخطط له بتاتًا.

فمن الوارد مثلًا، حدوث طارئٍ يعيقُ اجتياز الكائن إلى الوجود، وتُغلق في وجهه جميع المنافذ للحياة، فيفقد فرصته لأن يكونَ، إلى الأبد. فيحدث ما يسمى بولادة طفلٍ ميّت، أو التنازل عن الجزء المائي منا.

ثمة أسبابٍ عدة تحول بين المرء وعبوره إلى هنا. فبعضهم يتأخر لحسن حظه. وبعضٌ منهم يتردد طويلًا، حتى تضيع فرصته. وثمة من يقتنع بعدم القدوم بتاتًا، فيولّي عائدًا من حيث أتى، كإخوتي الأربعة، كما أخبرت سابقًا. وحدهم المتهورون والحمقى والمجانين، عبروا وأتوا إلى العالم. وهذا ما يجعل من البشر سلالة لا طائل منها. أما أرقانا وأحكمنا، فلم يأتوا. كانت لهم نظرة ثاقبة، بعبثية فكرة الوجود ذاتها، ولاجدواها، فغضوا النظر.

وأحيانًا يقع العطل بالعودة من الوجود إلى العدم. كموت رجلٍ في ساعةٍ لا منفذ فيها مشرّع. أن يهلك بمصيرٍ غير مخطط له بتاتًا. فينبثق روحًا قلقة، لا يجد هناك طريقًا أمامه. وبذلك يبقى هائمًا في الوجود، شبحًا، أبدًا يبحث عن منفذٍ ليستريح.

ثمة منافذ شهيرة للعدم، يعرفها كل البشر. بعضها مؤقتٌ كالنوم، وبعضها دائمٌ كالموت. وكلاهما مشرعٌ لكل فردٍ منا على الدوام. فمنفذ الموت، لا ينكشف للمرء

مرةً واحدة فحسب، وإنما هو في تجلٍ مستمرٍ له، طول حياته. وذلك يعود إلى أن موت الإنسان، عملية مستمرة، تبدأ منذ لحظة ولادته. إننا نموت على الدوام. هذه هي غايتنا الأولى، وهدفنا الأسمى. ولهذا فالمرء يرحل للعدم على مراحلٍ عدة، لا دفعة واحدة. فأن يكبر، هذا يعني أنه قد شيّع الذي كانه بالفعل. وهذا الفقد المستمر، الطبيعي، مدفوع بقوة التقدم في السن. أي كلما كبر المرء، كلما زاد مقدار فقده لنفسه، حتى يغدو عجوزًا هزيلًا، قليلٌ منه هنا، وأغلبه قد رحل بالفعل، وسكن في العدم.

ثمة محركات أخرى، تعمل على جعل المرء يفقد نفسه بمعدلٍ أسرع من المعدل الطبيعي. وهي الدوافع -أيًا كانت- المتخصصة في تحرير الدم، السعال، التردد، العرق، التأتآت، الزفرات، البصاق، الرجفات، الدموع، والمخاط. كل هذه الأشياء لا تعني إلا أن الإنسان في فقدٍ دائم لبشريته. فذلك الذي يفرز أيًا من هذه الإفرازات، بغزارة مفرطة، يفقد مائيته شيئًا فشيئا، بشكلٍ أسرع من المعدل الطبيعي للفقد. فيتحول لشبه إنسان، أغلبه قد مات، ولم يتبقّ منه إلا جزء ضئيل في الحياة. كائن ناقص، بذاتٍ متشظية، وسلوكٍ مشوّه. ولهذا يبدون منكسرين عادة، مطأطئي الرُّؤوس، خجولين، ومحبطين. لم يعد في نفسهم مقدارٌ كافٍ من البشرية، لمواصلة العيش بشكلٍ اعتيادي.

وليس البشر وحدهم الذين يرحلون إلى هناك. فأحلامنا تهاجر للعدم كذلك، حين لا نتمسك بها كفاية لكي تبقى معنا.

وأغلب الذكريات ترحل أيضًا، ولهذا ننسى. ونظرًا لكثرة ما نشيع من هذه الذكريات، في كل لحظة، فقد تشكلت جمهرة منهم هناك. ولهذا عندما يموت المرء، أول من يستقبله في العدم هو ذكرياته، بتفاصيلها، وهذا يقف خلف رؤية المرء لحياته كاملة، في لحظة الموت ذاتها.

آه، بأي حسٍّ عميق، خلق الله العدم!

يحدث أن يفقد المرء الكثير من نفسه. يُجرح بفشل، أو يطعن بإهانة، فينزف كينونته، وتتسرب منه، حتى يكاد المرء ذاته، يصير عدمًا.

إذا ما بحثنا في سيكلوجية العبد القديم، نجد أنه أُرغم على التخلص من كينونته، ليتمكن من المضي في طريق العبودية. حتى يكاد يُصدِّق، بأنه في الحقيقة، أقل من أسياده في المكانة الإنسانية. وتراه يفزع، ويضطرب، إن سألته فجأة، عن رأيه بشيء. ذلك لأنك عاملته كإنسان محترم، له كيانه كما لك أنت كيانك. وهذا القلق الذي يملؤه، ليس إلا اضطرابًا شديدًا من مادة العدم التي تسكنه. فالسؤال سيذكّره فجأة، بشيءٍ قديم، عزيز عليه. تخلص منه منذ وقتٍ طويل. سيفكر في كينونته المفقودة، بأسى، وذعر، كشيء بعيد وغير واضح.

ويحدث أن يكون المرء عدمًا، لا نتيجة فقده لكينونته، بل لأنه وُلد في الحقيقة، بلا كينونة، كخطأ في النظام.

هذا الكائن عادة، لا يعرف شيئًا. لا يطلب حقه، ولا يؤدي واجبه. أحيانًا يكون بيننا، ولا نعي ذلك. غريب، لا يدري ماهيته على وجه التحديد، ولا يدرك ما

الذي يحدث حوله في الواقع. أكثر براءة من الساذج، وأقل ذكاءً منه. إنه كائنٌ مستقلٌ بوجوده، لا أحد يعرفه، ولا يعرف هو بدوره، أي أحد. إن العالم يمارس وجوده، ولا يلتفت له. يكاد لا يستنشق هواءً، ولا يشغر مكانًا. منفي خارج الزمن، في بعدٍ لا أحد يعرفه، ولا هو نفسه يعرفه. ويخيّل لي لو سألت الله عنه، سيقول: '' لم أخلقه، لا أذكره.''

إنه عدم محض.

ما معنى أن يكون الإنسان، بلا كينونة؟ أن يوجد، ولكن كعدم؟ أن يكون كيساً من اللحم والعظام، بلا محرك باطني؟ لا شك بأنه أقصى تشوّه، قد يصاب به الكائن. إنه ترابي، ولا ثمة قطرة من المائي فيه. وكأنه قد تردد كثيرًا قبل مجيئه، فلم يبقَ في العدم، ولم يأتِ كليًا للوجود. إنه في تلك المنطقة الممسوخة، التي تقع بينهما. المنطقة ذاتها التي تسكنها أحلامنا. إنه خلل في الخلق. اضطراب في تيار التكوين. لن يكتمل أبدًا، لا بحياةٍ ولا بموت، لأنه في الواقع، لم يبدأ.

وكمن انتهت حياته للتو، وشدّ رحاله للوطن، أُلقي نظرة أخيرة ورائي، وأشاهد برعبٍ، بانوراما حياتي كاملةً، بكل تفاصيلها. أسأل نفسي، يا الله، ما الذي حدث للتو؟ ما كل تلك الرؤىٰ الجنائزية؟ وإن سألوني هناك في العدم، '' كيف هي الحياة؟ ''. سأصمت. فأنا لا أملك أي يقين، بشيءٍ غير مؤكد كالحياة. وإن استنكروا هيئتي: '' لمِ تبدو متعباً إلىٰ هذه الدرجة؟ ما الذي حدث؟ '' فماذا سأقول، عن كل الذي حدث؟

لقد كان الفرح ديني، والأرض ملعبي. طارت من عينيّ حمامتا الصبا، نفضتهما الأيام، وأشعلت في حدقتيّ جمرتَي الشباب. كنت أعرف أنني أكبر، وكان الثقل في داخلي يتفاقم.

حاصرني الجمال، وراح يقودني ككلبٍ له. كانت الغواية هي الغاية، ولا شيء يثير الروح إلا عمق الخطيئة، وبهاء الجريمة. كان الضياع أجمل من أن يُحتمل.

تنامىٰ الظلام شيئًا فشيئًا، حتىٰ وصلت لنور آخر النفق، فكان جحيمًا مشتعلًا. فاضَ الغبار، وتعزّز موقف القلق، وتفشىٰ الملل. كان باستطاعتي أن أشاهد قرون الإنسان وأجنحته في الوقت ذاته. ألمح الخير في قلب الشر، والشر في قلب الخير. بدأت

ألعن نجاسة القديسين وأبارك طهارة السافلين. ظننتُ أن الأمر قد اختلط عليّ، ولكن الأمور كانت هكذا على الدوام.

ضاعت الجدوى. قاءت الفضيلة كل ما تحمله من عفنٍ في داخلها. صار العالمُ قديمًا، واهترأت كل السبل للحقيقة. لا الألوان تُبهج ولا الأغاني تروي. اقتبرتُ باللغة لأتوارى عن العالم. وها أنا متضرحٌ بعجزي، أسردُ خيباتي بدمي.

ما الذي حدث؟ خسارة. لم يعد في حدقتيّ إلا لحم عيني، وفحمتان منطفئتان. انبثق في الأعماق حنينٌ للأصل. أصبح الوجود بأكمله، قضية غير مؤكدة. وخلقتُ في العدم، الذي هو عدم، فردوسًا أحلمه. وها أنا لا أقترفُ إلا صراحةً مخزية، أقدمها لغرباء لا أعرفهم. فيا للهزيمة!

ما الذي حدث؟ إنها الحياة. هذا ما سأقوله. لم يحدث شيء، إلا الحياة.

والآن، بعد كل هذه القرون التي مضت منذ هبوط آدم المشؤومِ على الأرض، هل نستطيع أن نعلن، وبكل أحقية، إخفاق الإنسان بخلافة الأرض؟

كانت حياة الإنسان ومنذ بدئها، عبارة عن مضيٍ للأمام. والآن بعد أن قطعنا كل هذا الطريق، وحدث التاريخ، بدأت تتضح لنا الرؤية كلما اقتربنا، وتبيّن لنا في آخر الأمر، أننا لا نسير في الواقع، إلا نحو الهاوية. فقد كنا ومنذ هبوطنا على الأرض، ونحن نحبو ببطء، إلى ناحية الجرف.

ومع مضي الوقت، تعلّم الإنسان المشي. ولا ريب في أننا بهذا العصر المريض الذي نعيش فيه، قد بدأنا بالهرولة، وقريبًا سوف نتقن العدو. إن وتيرة رحيلنا نحو النهاية باتت تتسارع، وهذا وحده كفيلٌ بأن يجعل المرء يرتعب من المستقبل، ويرتعد لمجرّد التخيّل بأنه سيكون جزءًا منه.

أيها السادة، إننا نعدو نحو الهاوية.

كنا نحبو إذًا نحو حتفنا، ولم نكن نعلم ذلك. ولكن الأمر قد كُشف الآن، بعدما اتضحت الرؤية، فلماذا لا نتوقف، وعوضًا عن ذلك، نتابع المضي؟

آه، إنها حسرة الإخفاق. إنه خجلنا من الاعتراف، أمام الهزيمة اللاذعة. إنه الإصرار الكئيب على المكابرة. إنها الرغبة الأخيرة في الانتهاء. إنها تلك اللحظة التي يفشل فيها المرء في أمرٍ ما بغير إرادته، وكنتيجة، يريد أن يدمر بإرادته كل ما تبقى. لقد نُسف هدفنا، فليُنسف إذًا كل شيء.

لو اعتليتُ منصةً، أو خشبة مسرح، وهذا يليقُ أكثر، وقصصتُ أمام الناس، حكاية العالمِ من البدء وحتى اليوم، بشيءٍ من التجريد والاختصار، مرورًا بعصرنا اليوم، متنبئًا بنهايتنا المأساوية، إذا ما تابعنا المضي على المنوال ذاته، ووصلت إلى نهاية الحكاية، معلنًا أمام الجماهير: '' وهكذا أفنت البشرية نفسها بنفسها! '' وأُسدلت الستائر على هذه الحكاية المأساوية، أو الهزلية، وانتهى كل شيء. ما الذي سيحدث وقتها؟ سأسمع تصفيقهم، كنهاية، لعرضٍ رخيص!

لن يحاولوا حتى، تغيير مصيرهم. لن يختلقوا سيناريو آخر. بل سيتابعون سيرهم بنشوة، نحو الهاوية. إنها شهوة السقوط.

إن الإنسان يتوق بشكلٍ غريب لنهايته، لدماره، وكأنها مهمته الأسمى على الأرض. هذه هي وسيلته الأعظم، في التعبير عن ذاته، وميول نفسه. إنه يستشعر لذّات

الفناء في الشيء، أكثر من الانتعاش به. وعلى ذلك يعبر المرء منا عن إخلاصه لوطنه بالتضحية، ولدينه بالشهادة، ولعشيقته بالافتداء. حبّ الموت متجذّرٌ عميقًا في أحراش الإنسان، مهما حاول إثبات العكس.

إن عصرنا هذا، ليس نقطة حاسمة في التاريخ فحسب، بل باستطاعتنا أن نعلن، وبكل ثقة، بأننا نعيشُ بداية النهاية. اقتربنا من هاوية آخر الزمان، واقترب التاريخُ من الموت. صار الإنسان يملك السلاح الذي من شأنه أن ينسفهُ في سرعةٍ، لا تسمح بأن يتخللها الألم. إنه الاختراع الأعظم، الذي انتظرته البشرية تاريخًا بأكمله: قيامة، من صنع الإنسان. أي فكرة رائعة! أي تكبّر! أي عزّة وبهاء! وكأننا نحافظ على ما تبقى من كرامتنا، بهذا الانسحاب.

فنحن الذين لم نختر مجيئنا، لنا الحق، على الأقل، بأن نختار رحيلنا.

إن أمرًا عظيمًا كحياةٍ متقنة، وسعيدة، يحتاج لمهارة عالية. وهذه المهارة لا تكتسب عادة من التجربة الأولى. إن الحياة، تحتاج لأن تتكرر مئات المرات، على الأقل، حتى تعاش بشكلٍ سليم. فإذًا من غير المعقول أبدًا، أن يُطلب منا إتقان الحياة، وهي تجربتنا الأولى فيها. لابد أن نخفق، ولا شكّ من أننا أتقنا إخفاقنا هذا، إذ ليس في غير ذلك طريقٌ ممكنٌ.

إن كان هذا العالم المهول، أتى كجزاءٍ لمعصية، إذًا ما العاقبة التي سنتلقاها نحن، على كل خطايانا؟ آه، كم نحن ملوّثون بالذنوب. ولولا وعد القيامة، لخُسف بنا إلى عالمٍ أسفل من جهنم ذاتها. عالمٌ هو الهول بعينه، حيث لا ذكرى هناك للحياة، ولا توقٌ للفردوس، ولا حتى سكينة بترديد اسم الله.

أعيدوا الحياة من جديد. أرجعوا شريط الوقت. لنقلب الساعة الرمليّة، قبل أن ينتهي العد التنازلي، ولنبدأ من جديد. فلتعد الأقدام من حيث أتت. لنبتلع الضحكات والشهقات. فلترتدّ الصفعات والطعنات والقُبل. لتعد كل الرصاصات التي اخترقت لحوم الرجال. فلْتقِئ الأرض كل الجثث. فليقذف الذئب أعضاء الحمل من معدته. لننسحب من حضورنا، ونلوذ بالغياب. لنشق بطون أمهاتنا، حتى نعود لداخلها. لنعدو عكس الزمن، ونمحي ما ارتكبناه منذ هبوطنا الملعون. لنعد قبل القضمة، قبل

العصيان، قبل أن نتعلم كل الأسماء. لنرجع، من قبل أن يُنطق حرف الكاف، فكان كل شيء. لنعد هناك، وراء تل الأزل. لنرجع إلى أعماق وادي العدم. للّحظة التي كان الله ينعم فيها بوحدته، قبل انبثاق فكرة الخلق. لنرجع، أيها الناس، فقد أخفقنا. إي والله، أخفقنا!

لقد هبط الفجر، وانقضىٰ أخيرًا الوادي المديد من خلفي. إنني أقف عند سفح الجبل. النور في الأعالي، ونفسي تتوق للصعود، ولكني مكدود. أعضائي تئن. روحي تعفنت موتًا. وجفناي ثقيلان. لقد تعبت، لكنني سأتابع سيري. لقد سئمت، لكنني صاعد، ولن أنزل. لقد كدحت بما يكفي، ولكنني سأمضي، حتىٰ النهاية. آه ما أطول الطريق. يتملّكني حنينٌ للخاتمة. توقٌ للوصول. للانتهاء من المضي. للوقوع علىٰ ركبتيّ، وسماع صوتٍ من الأعالي يربت علىٰ روحي:

’’ لقد أنجزتَ مهمتك يا بنيّ. ‘‘

8.6.2014

فيصل الحبيني

كائنٌ يمرحُ في العدم

هذا الكائن عادة، لا يعرف شيئًا. لا يطلب حقه، ولا يؤدي واجبه. أحيانًا يكون بيننا، ولا نعي ذلك. غريب، لا يدري ماهيته على وجه التحديد، ولا يدرك ما الذي يحدث حوله في الواقع. أكثر براءة من الساذج، وأقل ذكاءً منه. إنه كائنٌ مستقلٌ بوجوده، لا أحد يعرفه، ولا يعرف هو بدوره، أي أحد. إن العالم يمارس وجوده، ولا يلتفت له. يكاد لا يستنشق هواءً، ولا يشغر مكانًا. منفي خارج الزمن، في بعدٍ لا أحد يعرفه، ولا هو نفسه يعرفه. ويخيّل لي لو سألت الله عنه، سيقول: «لم أخلقه، لا أذكره.»

إنه عدم محض.

ISBN: 978-99958-70-80-5

info@masaapublishing.com
www.masaapublishing.com
P.O.Box 65317 Manama,
Kingdom of Bahrain

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution